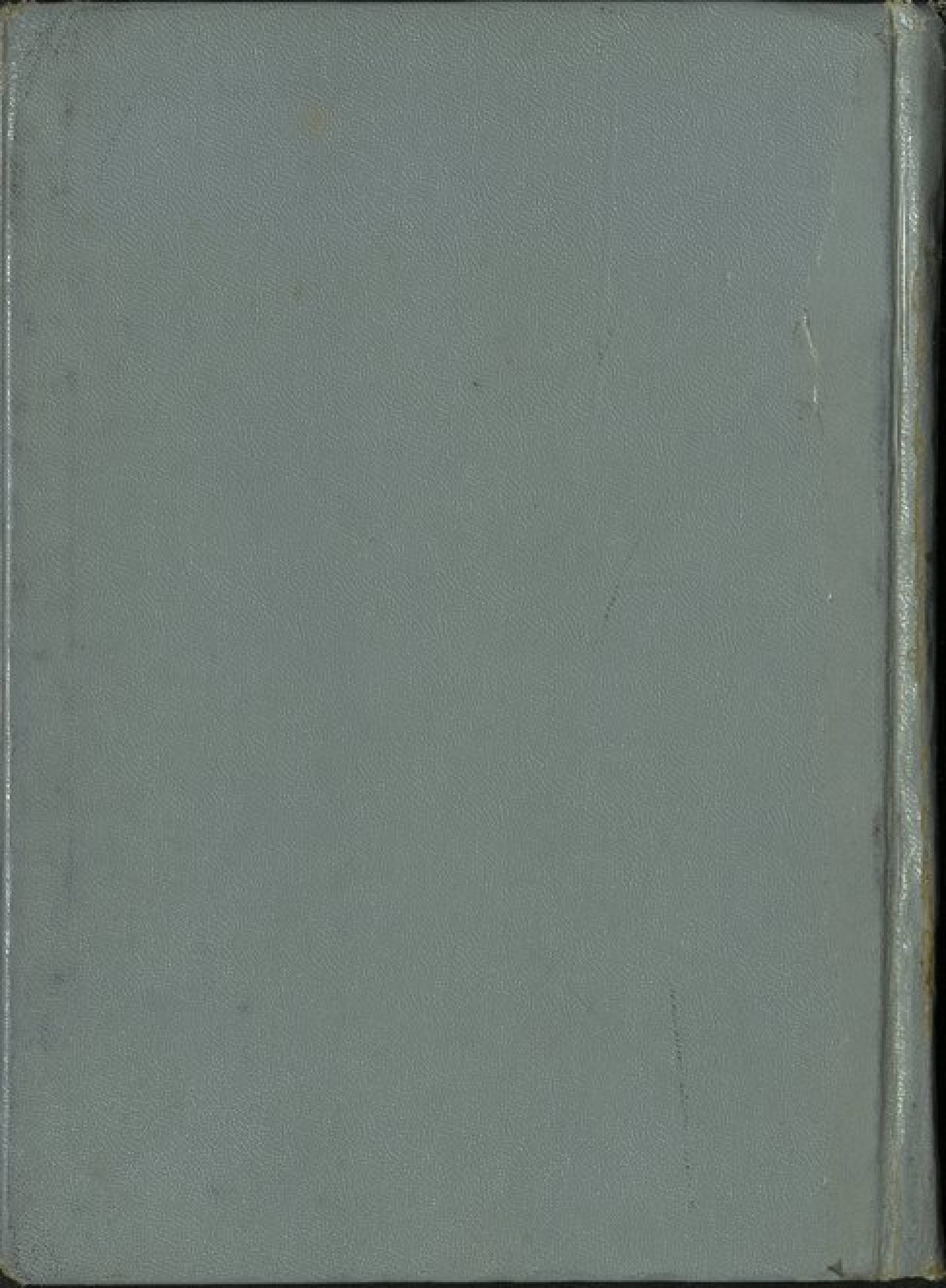
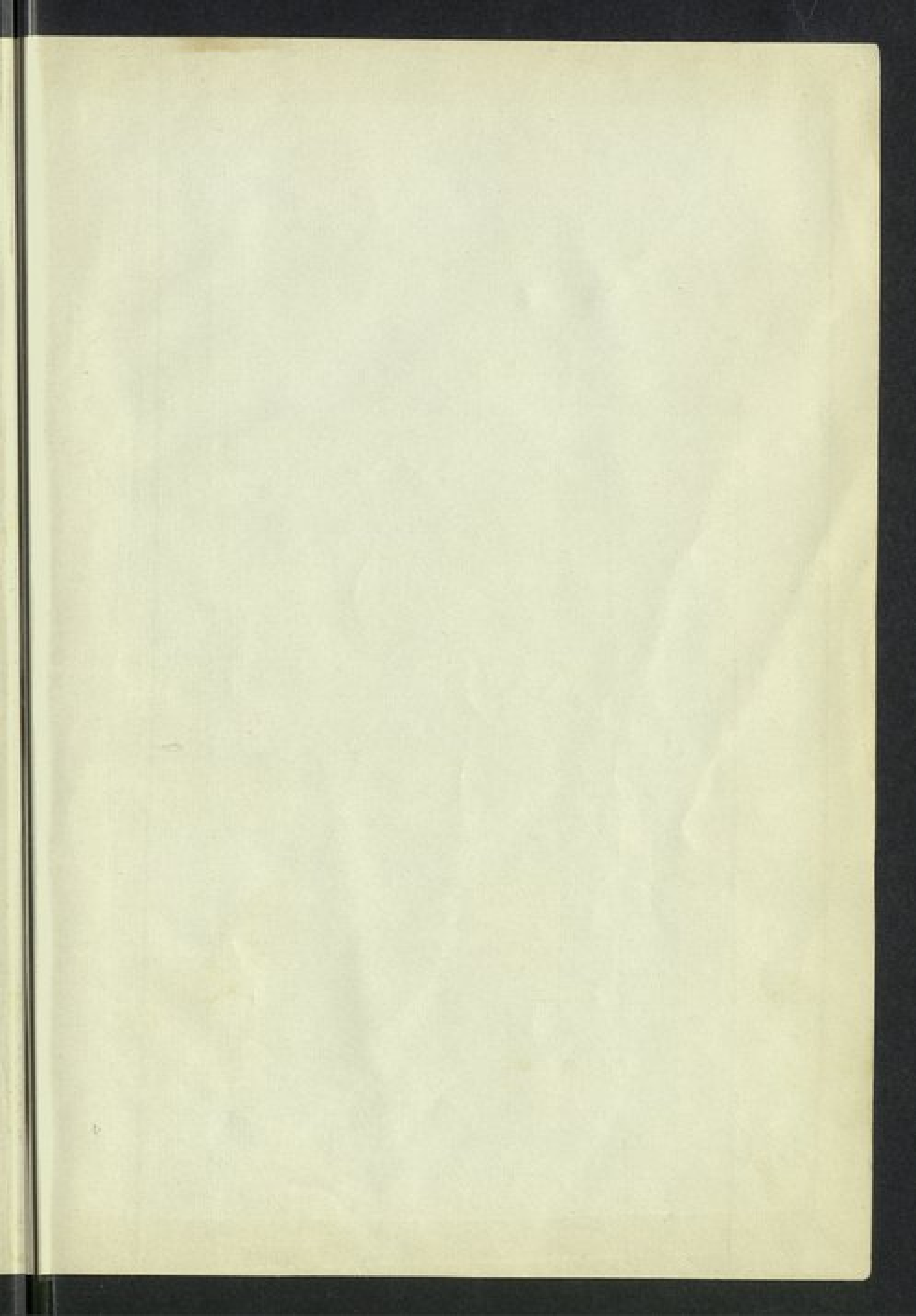
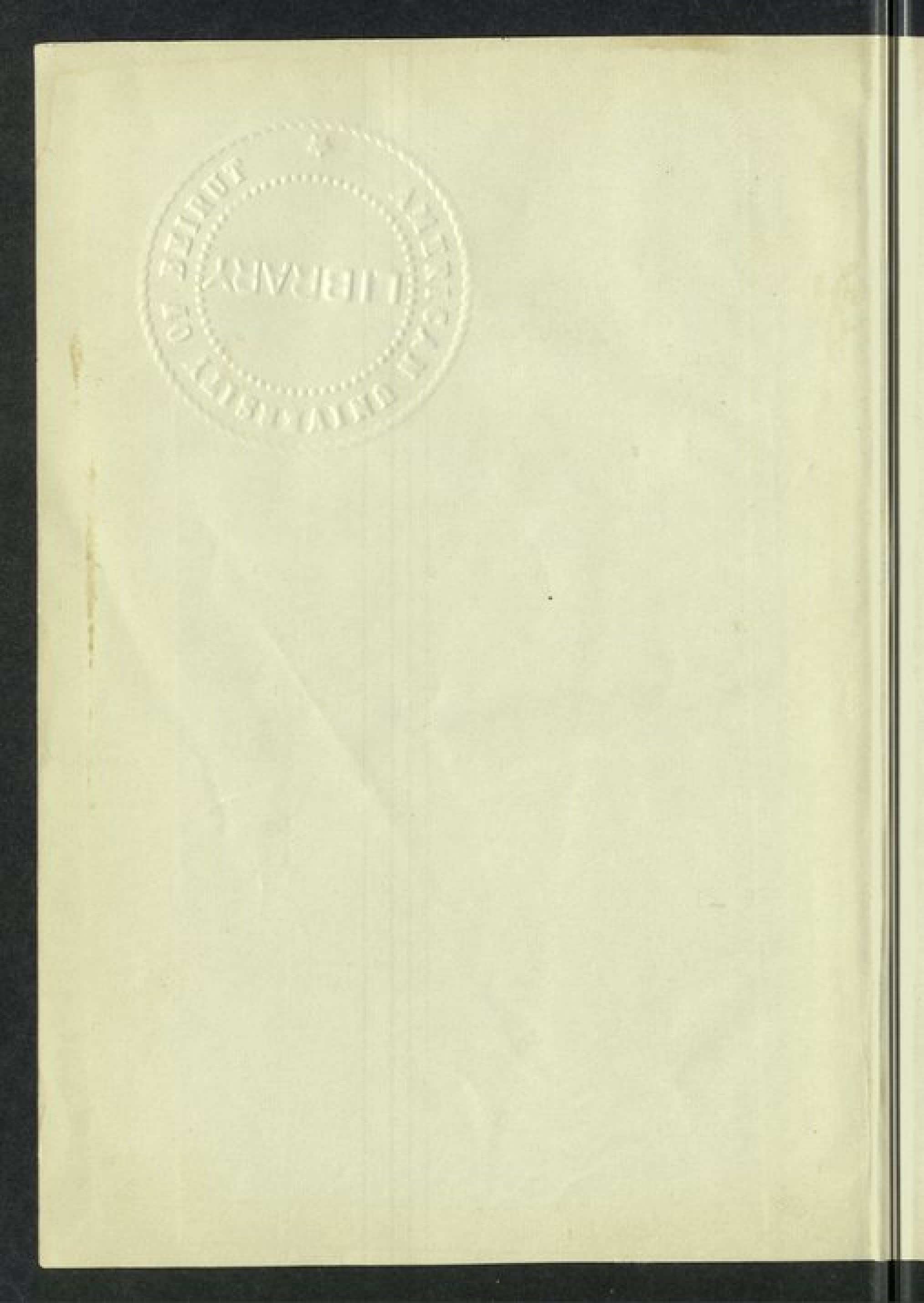
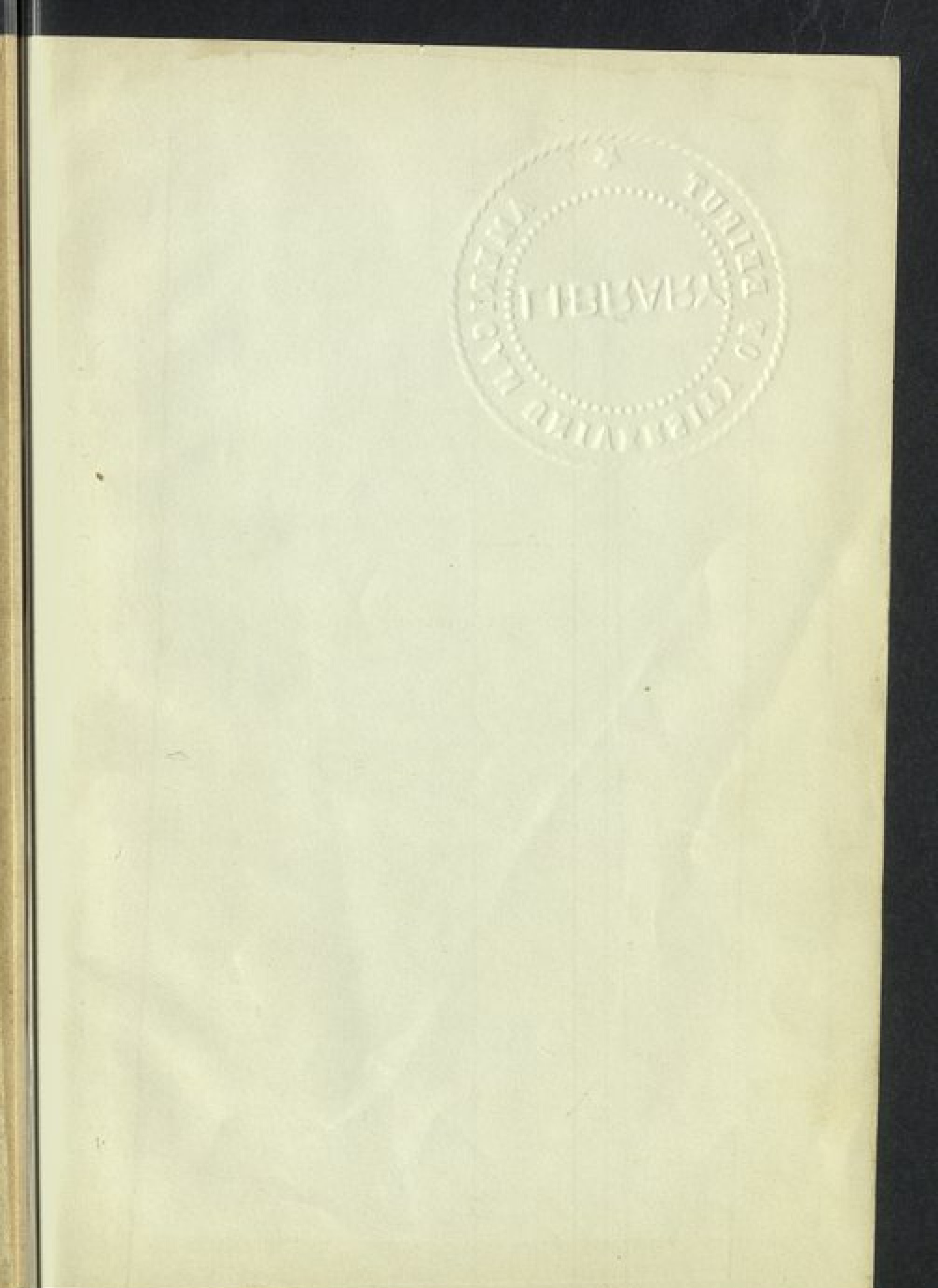








بنو معروف

في

جبل حوران

وضعه

عبد الله النجار

مدير معارف جبل الدروز

طبع في المطبعة الحديثة بدمشق سنة ١٣٤٣هـ و١٩٢٤م

كلمات في الكتاب

— ١ —

كلمة الكبتن كاربيه

حاكم جبل الدروز بالوكالة

صديقي العزيز

انبأتني منذ عهد قريب بانك تضع في ترجمة الامير سليم الاطرش كتيبا اخذ يتحول شيئاً فشيئا الى كتاب تاريخي عن جبل الدروز .

ذلك طبيعي . فغير مستطاع ان توفي ترجمة الامير حقها اذا أنت لم تتكلم في الوقت ذاته عن حكومة جبل الدروز المستقلة المدينة له . والتي هي ولا نكران من صنعه .

ان الامير سليماً الاطرش الذي بكيته بكاء الاخ أخاه سيحيي له التاريخ ذكرى اعظم وطني قام في جبل الدروز . ألا فانه ادرك استحالة ازدهار هذه الحكومة الا على يد فرنسه وضرورة التعاون الصميمي بين زعماء الجبل وممثليها — من جانب . ومن جانب آخر ، عندما ادرك ذلك اختط لنفسه منه نهجاً سوياً سار عليه بامانة كل ساعة غير حافل بما اعترضه من العقبات والمعضلات .

قلت ان التاريخ سيعتبره اعظم وطني في جبل الدروز ذلك لانه بادراكه ضرورة ذلك التعاون الصميمي إستطاع ان يصل بالجبل الى درجة من اليمن يغبط معها من الجماعات المجاورة .



— الكبتن كاربيه —

للامير سليم يعود الفضل في استقلال الجبل . فهو الذي

برعاية فرنسه الف بين قلوب جميع ابنائه . فأدى ذلك الى تعمير خزانة المال ، وشق الطرقات ، وفتح المدارس ، والأمن فى الزرع والحصاد ، وايجاد موازنة سليمة من العجز بل ضافية ، والتبكير في تشكيل مجلس تمثيلي نابه ذكي — امور عليها يشاد استقلال البلاد .

اقول ، ان مسرتي كانت شديدة في تموز سنة ١٩٢٣ لصيرورتي مستشاره اذ عاد الى مزاولة مهام الحكم بعد ابلاله من مرض طويل ثقيل .

وعملنا المشترك ؟ انه كان عملاً ودياً بين رجلين يتبادلان الاحترام والمحبة ، ولا يرميان الا الى مصلحة حكومة جبل الدروز المستقلة .

هاك تذكاراً : لما شعر الامير سليم بان مرضه لاشك قاتله فعزم على الاستشفاء في دمشق . قرَّم قبل ركوبه السيارة بالرغم من إنحطاط قواه الى أن يشتغل معي ساعتين طويلتين . وكان آخر ما قام به ان أعطى الاوامر بانجاز مدرسة السويداء وبأن يدرس اذا كان مستطاعاً جر مياه (عين القينه) .

مهما ينسَ الدروز يجب ان لاينسوا ذلك يوم يرون ابناءهم يكتبون العربية ويتكلمون الفرنسية . وان يذكروه اذ يرون قريبا مياه (عين القينه) تنبجس في منازلهم . تلك روح الوطني العظيم سليم الاطرش تبعث حية في ارواح بنيهم يوم يصبحون

اكثر علماً واستقلالاً . وتلك فكرته في عين القينه تزيد حقولهم خصباً وبلادهم ازدهاراً .

وعلى الدروزان يذكروا ايضاً ان الامير سليماً لماشعر بدنو الاجل المحتوم اراد بالرغم من الآلام الموجعة التي كان يعانيها في مرض شديد التبريح ، ان ينقل الى جبل الدروز ليلفظ النفس الاخير في مسقط الرأس ، في حمى الجدود . بعد حجه الاخير الى مزار (عين الزمان) .

هذا هو المثل الاعلى اندي قدمه الوطني العظيم سليم الاطرش لمواطنيه : — التعلق بتراب مسقط الرأس . والتعلق بدين الاجداد — مثل واجب التحذي .

عذراً ياصديقي المدير . فاني ما اسهبت في الكلام الا لأقول لك كيف ان فرنسياً مثلي بعد ان فهم الدرزي الكبير واصبح على شيء من الدرزية ، يشاطر الدروز عقيدتهم : اني على ثقة من انه لم يمت . وانه لايزال حياً فيما بيننا بفكرته وشجاعته وذكائه شعبه لشعب الدرزي الذي احبه حباً جماً ومن اجله فادى بحياته ، واذا ماخالجني الشك يوماً في صحة الحياة بعد الموت ، فكفى بي ان أرى أخلافه يحافظون بكل أمانة على تقاليد الشرف والشجاعة والشهامة مع فرنسة ، فهم ايضاً وقد اشبعوا بروحه فهموا ان في التعاون الشديد معها لافي سواه سر تقدم الجبل فاستقلاله !

كاربيته

— ٢ —

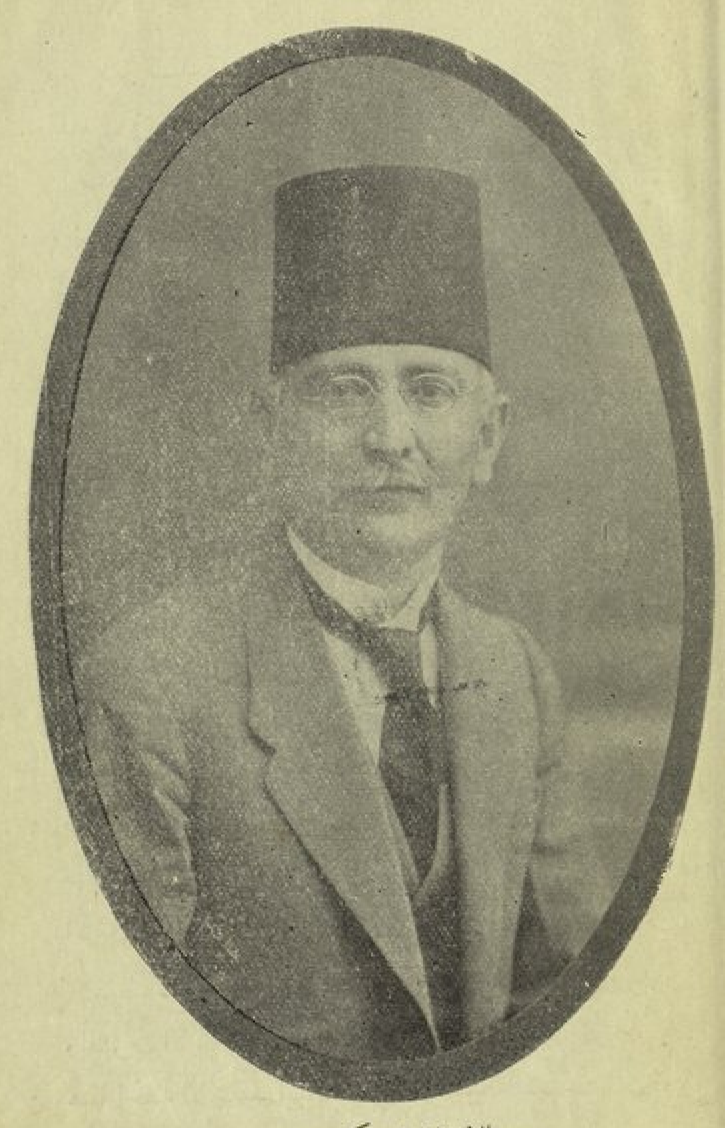
كلمة الاستاذ محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق

صديقي الأبر الاستاذ السيد عبد الله النجار مدير معارف جبل الدروز دام جدّه وجدّه :

سررت ويعلم الله بما تفضلت واسمعتنيه من صفحاتك الغر في كتابك الحديث « بنو معروف في جبل حوران » ومن لا يشكر لك همتك الشماء في جمع موادّه ووضع اصوله وتحقيق فصوله . فانت اهل لكل ثناء ببعد نظرك وفرط غيرتك على انعاش هذا القسم المهم من ابناء الشام . واي خدمة اجلّ من خدمتك في تسطير حقائق كانت من قبل مجهولة . ينتفع بها من كتبت لهم وتزيل شبهاً كثيرة عنهم امام من لا يعرفهم خصوصاً والناس . الاّ طائفة من الخاصة ؛ ما زالوا مختلفين منذ القديم في حقيقة الموحدين ابناء هذا المذهب وكان بعض المتعصبة ممن يرون الكذب على المخالف من السياسة والكياسة يتقولون عليهم ويحطون من مكانتهم ظلماً وافتئاتاً .

فكتابك ايها الاستاذ اماط النقاب عن وجه الحقيقة الجميل واظهر سكان هذا الجبل في مظهر يزيده حباً الى قلوب ابنائه ويحببه الى نفوس من لا يعرفونه وينشر ما كان مطوياً بالجهل غارقاً في ظلمات الظلم والضيم مموهاً بسياسة التفرقة .



— الاستاذ محمد كرد علي —

وما اضر السياسة اذا كان من مصلحتها أن تباعد بين اجزاء القلوب في الامة الواحدة .

صدقت وبررت يا اخي . فان قومك اشتهروا منذ القديم بانهم مثال التضامن — وارجو ان لا تطرأ عليه الطوارئ ابد الدهر — كما اشتهروا بالشجاعة والوفاء والكرم . وكل محب لهم اليوم يود لو يرى ابناءهم يمرنون ايضاً في فنون من العلم والزراعة والصناعة تلتئم مع روحهم واقليمهم . فقد انقضى عهد السيف والبندقية . وجاء دور التعلم والتربية . واصبحت الحاجة ماسة الى الجمع بين الصفات الكسبية والصفات النظرية .

وما مدارسك العشرون في انحاء الجبل لو انصفنا الا موطن سعادة هذا الشعب الابي ومبدأ دخوله في طورها . شعبك اليوم في طور الانتقال والرجاء ان يكون انتقاله الى بحبوحة السعادة على ما هو اهل لها بما خص به من اصول عربية لم تدنسها الشوائب ، واخلاق ظلت على حالها لم تقبل من ضروب التعاليم ما لا ينطبق مع قديمها . وكيف لامة ان تقطع صلاتها بماضيها . ومن أحق من بني معروف بالرجوع الى الاصل الصحيح . والاعتزاز بماض مجيد فيه جماع المفاخر .

غلط كثيرون في الماضي في حكمهم على سكان جبل حوران ، واظهرت الايام خطأهم في اجتهادهم ، وما كان الداعي الى ارتكاب هذا الخطأ الا تباعد ابناء الوطن الواحد بعضهم عن الآخر ؛

والبعد جفاء كما قالوا . فلما زال الكابوس القديم عاد القوم الى رشدهم يحاسبون انفسهم مع ابناء عمهم حساب تعقل وبصيرة ، وتعاهدوا ان لا يعودوا الى ما نهوا عنه . ونعم المؤدب الزمن .
وفقنا الله واياك ايها الخل الوفي الى ما يزيل فوارق القرون الوسطى من بين أبناء الامم الواحدة ، وان لا ينسينا أننا امة لا تحيا الا بشعار القومية العربية ، نجعلها نحلتنا في قيام دولتنا بمنه ويمنه .

محمد كرد علي

— ٣ —

كلمة خليل بك مردم بك

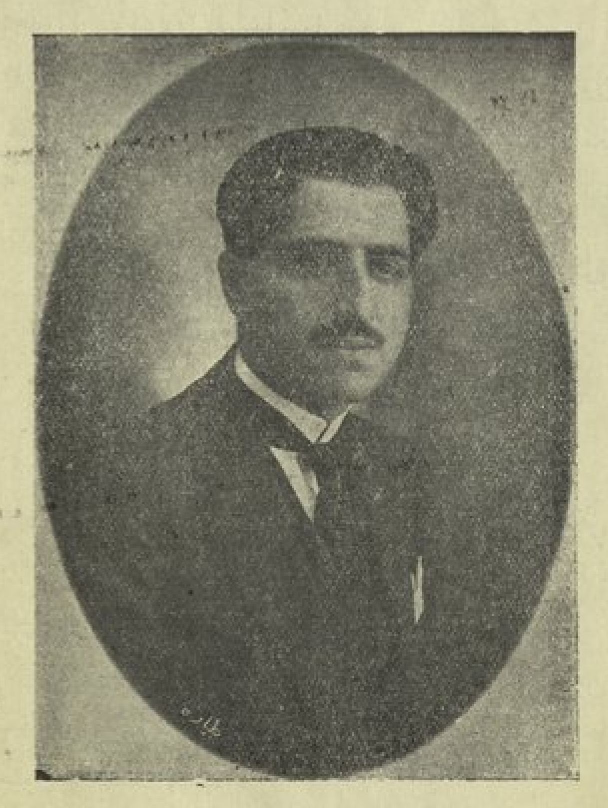
رئيس « الرابطة الادبية » المنحلة (دمشق)

نظرت في القسم الاول من هذا الكتاب فمثل امامي ، عناء المدقق ولهجة الصادق ، وأثر الاخلاص ، وحسن التأليف ، ومتانة الاسلوب ، جمع بعضها الى بعض فكان منها ذلك القسم .

الكتاب جيد بالغ ، نادر في بابه ، لأنه يكشف النقاب عن حقيقة قوم خصت بالحجاب الآ عن محارمها ، وطالما ناجزها الباحثون فاستعصت عليهم .

فمنهم : من يئس من بلوغ الغاية فاكتفى بالحرمان ، ومنهم : من جاوز مهيع البحث الى ترهات التلفيق فقنع بتدوين الاقاصيص والتكاذيب مما تلوكه ألسنة العجائز والصبيان ومن

في طبقتهم شأن بعض اصحابنا المستشرقين في كثير مما يكتبون عن الشرق، ومنهم: من لجأ الى القرية فاختلق وافترى ماشاء



— خليل بك مردم بك —

شاء وله الاستنتاج والاستنباط والتعليل والقياس الفاسد كغلاة الديانات وشياطين السياسات.

كل ذلك وبنو معروف معتصمون بالصمت كأنهم يتأثمون من الافصاح بشيء عن كنه مذهبهم الى ان اخرج احد كبار فضلائهم هذا الكتاب .

لذلك فلي ان اقول بملءِ فمي ان هذا السفر من اقوم ما كتب عن بني معروف وأثر من اخبارهم لأن صاحبه من اهل بيت القوم — ولا ينبئك مثل خبير — فضلاً عن جهره بالحق واتباعه طريقة التدقيق التي حرمها كثير ممن تصدى للتاريخ .

اقول ذلك وان كنت لا اسلم ببعض ما ذهب اليه كرأيه في ان من اكبر الدواعي لكثرة المذاهب والفرق في الاسلام الاختلاف في تأويل القرآن واشباه ذلك . ولكلٍ وجهة . وفوق كل ذي علم عليم .

خليل مردم بك

فهرست الكتاب

القسم الاول

الدروز في التاريخ

القسم الثاني

جبل الدروز

القسم الثالث

إمارة الجبل



— رسم المؤلف —

القسم الاول

الدروز في التاريخ

الباب الاول

مذهب الباحث

—١—

الملة في الامة

درس نحلة من النحل ، او ملة من الملل ، يختلف جد الاختلاف عن درس امة او قوم . فلكلا الدرسين ابوابه ومناهجه ، واسبابه ونتائجه ، اللهم الاّ في اجتماعهما معاً ، وفي ماينجم عن ذلك الاجتماع من (التفاعل) ، او تأثير احدهما في الآخر ، واشتراكهما في المظاهر .

الملة غير الامة .

نقصد بالاولى طائفة من الناس تذهب مذهباً خاصاً

في عقائدها الدينية . وبالثانية جمهوراً أو شعباً ذا تاريخ خاص لحياته العنصرية . ونعتذر بالحاجة في الاصطلاح الى اساتذتنا المتوسعين . ونعوذ بهم من الغلاة المتشددين .

وليس من تماس بين الدرسين . الا عند ما تتألف الامة من ملة — او ملل — وهي لابد متالفة . او حين ينتشر فيها أو في بعضها مذهب ديني . فيكون له اذ ذاك اثر في مدنيتها . ويكون للامة كذلك ، من حيث حضارتها ومستواها الفكري ، اثر في الدين وممارسة منسكه .

اجل . للاخلاق القومية أثر بيّن في عقيدة القوم ؛ عدا ما للعقائد نفسها من يد في (تطوير) هاتيك الاخلاق وتهذيبها . وبلى . ان مظاهرهما مجتمعين غيرهما مفترقين .

فانك لا تستطيع ان تقول بان (پروتستانتي) انكلترا من حيث الدين — محضاً — قريب الشبه من (پروتستانتي) الصين : او هو هوه ، دون أن توسم بالخطل . ولا ان ترمي وتتهم « كاثوليك » فرنسة

ببعض تقهقر حملة هذا الاسم في بلد خامل وتسلم من الزلل . بل ان من البلاهة ــ عند اهل الرأي والفيلسوف الانكليزي (هنري بكل) منهم ــ ومن الخرق ان يحاول (المبشرون) هدي الاقوام الجاهلة الى فهم صراطهم في الدين . ذلك لانهم انما بلغوه بعلو مستواهم العقلي وهي لا تزال على فطرتها وجمودها .

هذا على المبشرين ؛ اتفاقاً . اما الذي لهم : فهو ما يرافق دعوتهم من نشر العلم ليساعدهم على بلوغ غايتهم : برفع المستوى العقلي عند الشعوب التي يدعونها الى اتباع مذهبهم .

فالامم في رقيها تختلف مناهج عقيدتها وتتبدل اشكال عباداتها . بل ربما ادى تقدمها الى تعدد الفرق الدينية كما حدث بالاسلام والنصرانية أو الى الاستبدال بدياناتها ؛ وفتح ابوابها لديانة هي اكثر ملاءمة لها في حالها تلك وكثيراً ما كان الخلل الاجتماعي باعثاً على ايجاد شريعة اصلاحية تكون الصلة بين شريعتين متناقضتين من

اصل واحد . واحسبني موافقاً فى هذا الرأي القائلين بخلق الحاجة جديدنا . وما زال العالم فى جدد النشوء فالحاجة ام اختراعه ونموه . ولا استثني من بناتها العقائد لانها تولد .

اقول : للحضارة تأثير فى العقائد . وتغنيني بساطة هذه الحقيقة عن شاهد ودليل • ولكن للعقائد ضلع فى الحضارة ايضاً يهون التماس الدليل عليه . وحسبك منه فعله فى حضارة العرب بعد ظهور الاسلام • فهو بما بث من روح الجهاد ، وشحذ من شبوات البلاغة ؛ واطلع من انوار الهدى ؛ امتهد عند العرب يداً في تمدنهم حتى غلبوا عليه النسبة الدينية • فقالوا عنه « الاسلامي » لا « العربي » لجمعه اقواماً مختلفة تحت لوائه . فالاسلام فذ الاديان فى ذلك . وشاهد التاريخ الاوحد نورده لا للقياس عليه بل لبيان اثر الدين فى الحضارة ؛ كثر او قلّ اشتدّ او ضؤل .

— ٢ —

اشتراكهما

لم يطلق قوم غير العرب اسم الدين على تمدنهم . وكان ذلك لاسباب . منها ان الدين كان العامل الاكبر على استعجال ظهور ذلك التمدن ، او على اظهاره بتلك السرعة العجيبة . ومنها ان ذلك التمدن اشتركت فى نسج بردته أمم اسلامية لم يكن لها من القومية العربية نصيب غير اللغة فهي فى ذلك الحين لم تكن عاربة بل مستعربة حديثة العهد بالعروبة . وكان لها من الاسلام روحه وللاسلام منها روح مشبعة .

وكما ان التاريخ لم يحدثنا عن (تمدن نصراني) او « بوذي » او « برهمي » ؛ فهو لم يحدثنا عن دين كالاسلام انتشر بمثل سرعة الاسلام او اسفر مثله عن تمدن متأثر به مشيد على مثل هذا العدد من ملله .

ولكنه اسم اطلق على القوم فى درس تمدنهم القومي

على اختلاط العنصر ؛ لا على النحلة وملتها • فهنالك من لم يشملهم هذا الاسم من اقوام مسلمين كالفرس والترك وغيرهم .

اذن فاسلوب التاريخ فى درسه الملل غيره في درسه الامم .

وإنا فيما قدمنا من التمهيد نريد الفصل بينهما لصلة البحث المقصود ؛ لا للقول بانقطاع الصلة وتراخي الاسباب . او اتهام شادي طرفيها بالشطط والضلال .

قلّ ؛ قلّ جداً فى حادثات التاريخ كما سنبين فيما بعد ؛ ان صارت النحلة قومية — وهذا غير القول بقوميات ذات نحلة واحدة — حتى ان قول الجازمين بذلك مطعون فيه . فالقياس انتشارها فى قوم وقد تحصر فيهم • فهم اذ ذاك قوم ربما حملوا اسم نحلتهم .

ربما حملوه . لا ان النحلة مكونة مدنيتهم • فمكوناتها علل وعوامل شتى ؛ والنحلة منها من حيث هي نتيجة من صوب وعلة من صوب آخر .

وهذا غير منازع فيه ولا مشكوك . ألا ان كل ماتولده حضارة قوم يشترك فى اقامة تلك الحضارة . وذلك لانه ان لم يكن له خاصة النمو فى المولود ؛ اولم يكن له تأثير او ارتباط بما حوله فهو موجود ؛ والوجود عمل قائم بذاته .

— ٣ —

هما والتاريخ

يتناول التاريخ امة .

فيبحث في جنسها ونشوئها وعصورها ودولها وحادثاتها واقتصادها وعلومها . وهي ابحاث كان المؤرخ القديم يدونها نقلا عن رواتها ؛ اما المؤرخ الحديث فيعول على مصادر اخرى استقرائية واستنتاجية في اثبات ذلك النقل او نفيه علمياً . فلا قيمة لحادثة ينسبها المؤرخ الى احد القدماء لا يؤيدها شيء من اخلاقه او الاحوال التي كانت محيطة به . اذ العلم لا يعرف الخلق الفجائي ولا يدين به الا في شكل من اشكال

المخلوق [١] – عدا ايمانه بالتطور او النشوء الطبيعي –
ولعل الحسن بن هاني (الملقب بابي نواس) اتعس الشعراء
الاقدمين في عزو الناقلين، اليهم ما ليس لهم ..

ولكن ما بالنا نوغل في الماضي ؟ هاك (لوثر) !
فما هو باسعد حظاً مع زمرة المؤرخين من النواسي .
ناهيك (بولسن) في (محكمة منتحلي التاريخ) واحكام
نقلة المؤرخين الذين لا يعنون بدرس نفسية الرجل
واخلاقه ليجعلوها مقياساً لاعماله كأنهم قضاة من شأنهم
الحكم عليه او تبرئة ساحته. واشد الامم غبناً معهم
(البلشفيك). وهنا (الف ليلة وليلة) القرن العشرين ..

على ان نصفة المؤرخين في طريقتهم الحديثة ازالت
كثيراً من هذه الفريات والافتئاتات على الحقيقة .
فابو نواس عندها شاعر ظريف لا مضحك . ولوثر
شارع لا حاسد منتقم . وولسن مصلح لا العوبة .

---

[١] يسمى ذلك الشكل Mutation او Sporting اي شكل
في المولود لم يكن لسلالته التي تحدر منها .

و (البلشفية) نظام اجتماعي جديد لا سورة جنون الشعوب . ذلك لان قوامها درس نفسية هؤلاء ، وعلل آثارهم درساً عملياً لا نقلياً ، وشأنها تصويرهم للناس كما هم لا الحكم عليهم بالاعدام ! .. حتى انها لتعزو الى احد اشياء تضافرت على ايجادها العلل ولو منع من ظهورها مانع . فانتصار نابوليون مثلاً في معركة وترلو (لان خطته كانت خطة انتصار) منع من ظهوره تأخر احد قواده عن نجدته المدبرة لوجوده في المنطقة الصامتة [١] .

هكذا يتناول التاريخ البحث في الامة .

❀❀❀

ويتناول التاريخ ملة :

فيبحث في نحلتها ومصادرها الفلسفية ، والتطور الفكري والاحوال الاجتماعية وطائفة من العلل

---

[١] يختلف العلماء في تعليل وجود هذه المناطق . فان الذي فيها لا يسمع صوتاً من خارجها مهما يكن عالياً .

التي افضت بها واشتركت في اظهارها • وهي ايضاً حلت بها نكبة النقل وابتليت بعواطف الرواة • وظلمها مؤرخون وانصفها مؤرخون •

والتاريخ العلمي —— توسعاً في الاصطلاح —— يفعل بالنحلة فعله بالامة ، فيوسعها بحثاً واستقراءً • ويقتلها درساً وتنقيباً • فلا يقول مع الناقلين ان ابا العلاء المعري جاحد بل يشير الى العلل التي هذبت عقائده ، وجعلتها نسيج وحدها • وجعلته فذ زمانه وعصامي عصره • فهو في نظره ليس ذلك الصعلوك الكافر الهارب من وجه الله • بل انه حجة العبقرية المنصبة أمام الشمس • وحاشا لهذا التاريخ ان يهزأ بالعلم ويسخر من قواعده • فيردد العجائب عن رواتها بسذاجة القروي المؤمن • او ان ينقاد الى مؤولي سبعة ايام الخليقة واحراق (المكاتب) واغلاق مدارس روما وانشاء محاكم التفتيش ، فيجعل القلب والعاطفة مصدراً من مصادر التحقيق ••

لا ننزه هذا الاسلوب في نهجيه عن الخلل • ولا نعصمه في درسيه من الزلل • ان يد المرء التي تدونه يحركها عصب من الدماغ ولكنها قريبة الى القلب وهو كما قلنا لا يزال في حداثته • الا اننا نتفاءل بتقدمه ونعلن الارتياح اليـه . ونشير الى التقاء الدرسين ـــ درس الملة ودرس الامة ـــ في مواضع كثيرة

— ٤ —

المدونون والتاريخ

تكلمنا عن التاريخ الحديث كعلم باصول • ولا بد لنا من كلمة عن مزاج الكاتب الذي يدونه • وارى ان للكاتب تأثيراً كبيراً فيه . من حيث مزاجه وعاطفته فلمزاجه وعاطفته يعزى الاختلاف والتباين في الحادثة نفسها التي يدونها سواه •

الكاتب اثنان : ـــ كاتب يصور الحياة كما يجب ويحب ان تكون • وغايته رفع الناس الى المستوى

الكمالي • وكاتب يصفها كما هي ليعبد الناس لها ويهيئهم لنزالها •

في اسلوب الاول الاصلاح بتحدي المثل الاعلى والنزوع اليه • وباغراء النفوس على انتحاء الكمال وانتجاع موارد الجمال •

وفي اسلوب الثاني اصلاح بعدم الاغضاء على المساوي ْ • اصلاح في ايقاظهم عليها • فالناس لا يطلبون خيراً مما هم عليه الا اذا ساءتهم حالهم وآلمتهم فنزعوا الى حال افضل منها • ومولد هذا النزوع الالم لا الامل • انما الامل ريشة رسام ماهر فنان هو الالم •

وهو اصلاح في جعل روح الكاتب العالية وذوقه حكماً في صحة الاشياء او فسادها • ولهذه الروح وهذا الذوق مستوى ارفع من مستوى عامة الناس • وحسبهم بلوغه • وحسب الكاتب رفعهم اليه فسير فعهم غيره الى اعلا منه متى بلغوه • وخير اصلاح

للبشرية رفعها الى مستوى مفكريها — لا الى مستوى تفكيرهم — ولكل جيل مفكروه •

ان علماء التربية يقولون بوجوب اباحة الاسرار للبنين ، لئلا يكتشفوها بالمعاشرة وهم عزل من سلاح الموعظة والارشاد • هكذا الكاتب الثاني للناس • وليس للتاريخ الحديث الاه ، بل انه خير من الاول لكل علم وفن حتى التصوير وحتى الموسيقى •

❀❀❀

لهذين الكاتبين ثالث • واخسارة اللقب فيه . انه له برغمنا ، لان كتبه منتشرة متداولة . هو له برغم الحق . وهذا الكاتب هو « المجتزئ » •

وما هو الاجتزاء ؟ انه اسلوب منطق سقيم قديم اريد به التضليل • يستعين صاحبه بالاجتزاء بما يلائمه من المسطورات والمرويات والاستشهاد به لتأييد وجه من وجوه الجدل : لا يهمه فى ذلك التحقيق والاصابة والخضوع لقوانين البحث واصوله • غرضه الفوز فى

المناظرة بتزويق الكلام ولو بالايهام . هو ضرب من ضروب علم الكلام فى فوضاه ؛ تقصير اصحابه ادى مثلا الى تعدد الفرق الاسلامية فى صدر التمدن الاسلامي . فهنالك الخوارج والمرجئة والشيعة وغيرها ولو انها جميعاً رجعت الى القرآن لما كانت هذه الفرق ولا ننس ان السياسة العامل الاول الذي اوجد هذه الفرق .. وهو فى قول الشاعر :

ما قال ربك ويل للألى كفروا

بل قال ربك (ويل للمصلينا) ..

واكتفائه دون (الذين هم عن صلاتهم ساهون) وفى كل كلام لا تكون لحمته وسداه التحقيق والامانة؛ حتى فى الشهادتين ..

ولهذين الكاتبين ايضاً رابع وخامس .. وأغربهم ذلك الذي ينشر كتابته السقيمة حباً للنشر . ويقول فى تبريرها انه انما قصد اظهارها على نقصها ليرى الناس طوراً من اطوار حياته العقلية كانه رحمة لهم

واشفاقا عليهم - مع احتساب اعترافه - يخشى فيما بعد ان يفاجئهم بغرر حقائقه وبواهر اكتشافاته مفاجأة تبهرهم وتصرعهم ..

❁❁❁

نشير الى هؤلاء؛ وعبثهم بالتاريخ وتحاملهم على مواكب اسفاره؛ ونحن فى صدد كتابة شيء عن الدروز لان الدروز —— وغيرهم كثير —— احدى ضحاياهم . نقول هذا ولا نعتقد سلامة هذه الطائفة من جميع ماعزوه اليها: بل تقصيرهم فى التحقيق وحسرهم وسنكون من دونهم الكاتب الثاني نهجاً وغاية وبعداً عن منال العاطفة .

— ٥ —

المؤرخون والملة الدرزية

الدروز ملة . والملة تقوم بالدعوة الى نظريات دينية وهذه النظريات وليدة نشوء فكري .

اما قوميتهم فعربية (مع الاختلاط الذي اصاب

عرب الشام) لان هذا المذهب الدرزى لم ينتشر فيما نعلم الا بين العرب كما سيأتي بيانه :

ومما سبق نرى انه لا يمكن درسهم باعتبارهم امة. اللهم الا إن ثبتت طويلا هـذه الدويلات المحدثة في بلاد الشام وخرب الزمان بينها وبين قوميتها الحاضرة وخصها بمميزات ، وبنى آساسها باحجار من حوادث تاريخية جلى عليها يقوم الفصل •

فالتاريخ اذن يدرسهم باعتبارهم ملة . وهو كما مر يبحث في نحلتها ومصادرها الفلسفيـة من حيث هي مذهب في الدين ، والتطور الفكري الذي ادى اليها .

ومن المعلوم ان مذهب الدروز مذهب مكتوم • مدون في كتب مخطوطة يحرص عليها الحرص كله • حتى انه لا يسمح لجميع الدروز باقتنائها [١] وان هذه

[١] هنالك فئة كبيرة يحرم عليها الاطـلاع على الكتب المذهبية يسمونها فئة (الجهال) من حيث انحرافها عن صراط الدين ونواهيه .

الكتب لا توجد جميعها في مكان واحد الا نادراً ومنها ماهو مفقود . فوجود واحد منها او اكثر في يد الباحثين من غير الدروز لا يكفي لفهم النحلة تمام الفهم وارجاعها الى مصادرها . هنالك حجاب صفيق بين الباحث ومبتغاه ولو اجتهد في التنقيب كالعلاّمة نوفل نعمة الله نوفل .

اما المستشرقون . وهم كما نعلم اجمعهم لهذه الكتب فكثيراً ما يخطئون الهدف في المباحث الشرقية التي توفرت فيها الدلائل واصطلحت عليها المصادر فكيف بهم في كتب كثيرة الرموز عسرة التحليل ويبدو لي ان لاختلاف التربية العقلية ـــ ولا نقول مع رينان الفيلسوف الفرنسي باختلاف العقلية نفسها ـــ يداً في اغلاق مباحثنا عليهم على الرغم من اجتهادهم .

فمنهم المستشرق الافرنسي (فولنه) ـــ في رحلته من سنة ١٧٨٣ ـ ٨٥ ـــ الذي اعجب بالدروز واثنى عليهم . و (غرام) سنة ١٨٥٤ ولا يوجد الا

نسختان من كتابه واحدة في مكتبة اليسوعيين والاخرى كانت عند المرحوم المطران بطرس شبلي . واللورد (دوفرين) سنة ١٨٥٨ مندوب الانكليز في مؤتمر بيروت سنة ١٨٦٠ وفي مؤتمر الاستانه سنة ١٨٦١ . والمستر (تشرشل) القنصل المشهور . وكثيرون غيرهم

ولم نر الى الآن لاحدهم حتى للذين عايشونا كالدكتور بورتر ، نظراً صادقاً من جميع اطرافه. وسنعرض فيما بعد لبعضهم • ولن نعرض للكتاب العرب الكثيرين الذين طرقوا ابواب هذا البحث متهددين ناقين كاستاذنا العلامة السيد محمد كرد علي [١] ، او متوددين غيورين على فرق الاسلام كشيخنا الاستاذ عبدالقادر المغربي في حديثه عن القرامطة ، فهم مايزالون بالباب .

ولا يخالنّ القارئ مما تقدم انا نعده بتوفية

---

[١] قبل ان يصير رئيساً للمجمع العلمي العربي بدمشق . في صيحته على أثر تجريد حملة سامي باشا الفاروقي على الدروز سنة ١٣٢٨ هـ . وطنية مغتفرة .

الموضوع حقه • فالباع قصير • انا سنلم به الماماً .

وحسبنا ان ندله على شرعة هذا المذهب . بل على أرومة هـذه النحلة ولا حاجة الى إطالة البحث فيها نفسها . يكفي ان ندل على الاسباب والعلل التي افضت اليها ، فكانت هي النتيجة . ونجتنب بذلك التورط في بحث ديني ونتحاشى خرق الحفاظ رعياً على الادب • ولا سيما ونحن غير مضطرين اليه فى بحثنا الذي لا ندعي العصمة فيه بل الامانة في قولنا الحق •



الباب الثاني

ذلك العصر

— ١ —

سياستــه

طلع القرن الرابع للهجرة (العاشر م) على الدولة العباسية فاذا هي في دور احتضار طويل . وقد كان من اسباب ضعفها اصطناع المعتصم بن الرشيد للجند التركي الذي افتتح نفوذه بقتل المتوكل سنة ٢٧٩ هـ . وكانت سنة ٣٣٤ هـ . فاستولى البويهيون (معزّ الدولة) على زمام الاحكام في بغداد . وابقوا على الخلافة للعباسيين سياسة منهم ودهاءً كما يقول ابن الاثير . ثم استقلت الولايات فكانت حلب للحمدانيين . ومصر لكافور الاخشيدي . والهند وافغانستان لآل سبكتكين . والمغرب للفاطميين الذين فتحوا مصر سنة ٣٥٨ هـ على ايدي المعز

لدين الله بقيادة جوهر الصقلي [١] . وما وراء النهر لبني سامان . وطبرستان للعلويين . وبقيت الاندلس للامويين .

تعددت الدول واشتدت المنافسة بينها حتى طمع فيها الروم وكادوا ان يستولوا عليها لولا ان وقف في وجههم الحمدانيون (سيف الدولة) كما وقف الايوبيون في القرن السادس في وجه الصليبيين . وعز جانب الفاطميين واستفحل امرهم حتى استولوا على حلب وتم لهم امر الجزيرة والشام وخطب لهم على المنابر . وكان من ضعف سائر الدول وانحطاطها ان كانت تلجأ احداها الى ملك الروم وتستعين به على الاخرى كما فعل ابو الفضائل الحمداني . ولم يكن للفاطميين في بادئ الامر من القوة ما يمكنهم من ذوده عن الشام .

[١] الذي اختط القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية . وكان بنو بويه (الديلم) دولة شيعية اشتد ازر الشيعة بهم حتى هان فتح مصر [illegible]

كانت الدولة الفاطمية شيعية ، وكذلك كان البويهيون في بغداد ، والادارسة في المغرب (مراكش من سنة ١٧٢ هـ ـــ ٣٧٥) ؛ وكان ذلك وغيره السبب في فوضى القرن الرابع الذي نَسمه بالانحطاط السياسي ولكن هل توسم بهذا الانحطاط الحياة العلمية في ذلك القرن ؟ وهل يرافق الانحطاطَ السياسي الانحطاطُ العلميّ كما يرافقه الانحطاط الاقتصادي ؟

— ٢ —

علومه

ان لنهوض الدولة تأثيراً في نهوض العلم ، بل ان العلم ليعقب ذلك النهوض بلا شك ؛ ولكن للنهضة العلمية مقدّمات تظهر بظهور الدولة قبل ان يظهر العلم الذي هو أثرها .

وتضمحل الدولة ولكن العلم لايضمحل معها بل يستمر بعدها قبل ان يصل اليه تأثير انقطاع اسبابه

هكذا كان شأن العلم في ذلك العصر. فكما انه لم يزدهر في عهد ابي جعفر المنصور او المهدي او الهادي بل في عهد الرشيد والمأمون، كذلك لم تذوِ ازهاره وتخبُ انواره في عهد ذلك الانقسام على اثر تقهقر الدولة العباسية، بل بعد هذا الانقسام بزمن طويل. فكان من اعلام العلم والفلسفة والشعر في ذلك العصر :- الشريف الرضي. والمتنبيء وابو العلاء. وابن العميد. والصابيء. وابو علي ابن سيناء. وابو نصر الفارابي. والصاحب ابن عباد. وابن جني. والبيروني. والطبري وابن حوقل. والاصطخري. وغيرهم من المؤلفين والمصنفين الخالدين في تاريخ التمدن الاسلامي.

إذن. فذلك العصر كان عصر العلم [١] والفلسفة.

---

[١] ولا سيما علم الهيئة الذي ازهر في ظل الفاطميين بمصر.

— ٣ —

ديانته

الدين آخر ما تصل اليه يد العلم ، لاتصاله بالفلسفة ففي ذلك القرن تعددت الفرق الدينية . وكان الباعث على تعددها تقدم العلوم ولاسيما علم الكلام والفلسفة ماخلا الانقسام السياسي . فمن الثابت ان اول انقسام ديني كان سببه السياسة . وقد هيأت الناس لهذا الانقسام حياتهم الاجتماعية وما وصلوا اليه من البذخ والرفاهية واختلاطهم بالامم الغريبة

ولا يسعنا تعداد الفرق الدينية التي اوجدها ذلك العصر . تكفي الاشارة الى اسواق المناظرة والجدل ، والتقاتل حولها كما فعل القرامطة بالبحرين والاسماعيلية بمصر والخوارج الاباضية ؛ وتأثير الفلسفة فيها وازدهار الفقه وتأثر الخلفاء بها ؛ وما كان من امر السنة والشيعة وكانت جميع هذه الفرق الاسلامية تتطاحن حول القرآن .

ومن هذه الفرق (الدروز) •

واليك البيان :

— ٤ —

الفاطميون [١]

يثبت لنا التاريخ ان شأن العلم لم يكن اقل عظمة في عهد الانقسام منه في عهد العباسيين • ونظرة الى ما التف حول ملوك ذلك العهد من العلماء ؛ وما كانوا يصادفونه منهم من الاجلال والتقريب والحماية [٢]، وعلوّ الكلمة في قصورهم وبذل الصلات لهم على رغم

[١] هم سلالة فاطمة الزهراء بنت النبي وزوجة الامام علي بن ابي طالب ، اول خلفائهم ابو محمد عبيد الله المهدي المنتسب الى جعفر الصادق ، وفيهم يقول الشريف الرضي :

ألبس الذل في بلاد الاعادي وبمصر الخليفة العلويُّ
من ابوه ابي ومولاه مولا ي اذا ضامني البعيد القصيُّ
لفّ عرقي بعرقه سيدا الناس جميعاً محمدٌ وعليُّ

[٢] حماية فلاسفة الدين فكثيراً ما كانوا تحت رحمة الروح الدينية المتمكنة في النفوس اذ ذاك ،

الانحطاط الاقتصادي • نظرة الى ذلك تكفي للدلالة على علو كعب العلم وعزة جانبه • وكأنني بالعلم في حاله تلك يفهمنا انه فى كل عصر يأبى ان يظل متشبثاً باذيال السياسة ولاسيما اذا سايرت هذه السياسة متوليها فكانت شديدة التعلق به والامانة له في نهوضه وسقوطه •

من غمرة ذلك العصر شبت فى مصر فئة من الحكماء متأثرة بروحه الفلسفية فى نضوجها ؛ منشقة من الشيعة ثم انها انقسمت على ذاتها ايضاً فاذا (القرامطة) ومنهم الاسماعيلية او الباطنية من اتباع الحسن بن الصباح • ومنهم الدروز اتباع حمزة بن علي بن أحمد ؛ وهي فرق صوفية بحتة او هي من غلاتها •

ان روح القرن الرابع للهجرة وما نقل العرب من علوم الفرس واليونان وفلسفتهم ، وما اعتمدت عليه تلك الروح من الانقسام السياسي • كل ذلك ساعد هذه

الفرق [١] على الظهور بثوبها الديني وشجعها الخلفاء في خلافها، وانقسامها • وكان انصرافهم اليها ذلك الانصراف سبباً في تقصير اعمار دولهم وتقريب آجالها فالشيعة مثلا كانت تسام ضروب الاضطهاد وصنوف الخسف في عهد العباسيين الذين كانوا يرهقونها لأوهى الاسباب • فهل اغرب من ان يأمر الخليفة ببغداد عامله على مصر بان يزاد مئة جلدة في ضرب ذلك الرجل الذي استحلفه بالحسن والحسين فى معرض استغاثته؟ وكان عمال الولايات يتخذون ارهاق الفرق المخالفة معبراً الى ارضاء ساداتهم • فلا غرو ان شبت شبوبها واشتدت مرتها عند زوال السلطة المرهقة بل ان ساعدت في تعجيل زوالها • وهل تستغرب بعد ذلك اتخاذ الخلفاء اياها واسطة لنشر دعوتهم وبسط سلطتهم على الاقطار؟

[١] هنالك مالا تقوى على حصره من الفرق والمذاهب في ذلك العصر عدا الشيعة وفرقة الخوارج وفرقة المرجئة وفرقة الجماعة والمعتزلة وفروعها.

ذلك مافعله الفاطميون في استيلائهم على مصر •

ثم ان الشيعة فى ذلك الشبوب اصابها شيء من فوضى الانقسام فتعددت مذاهبها • واستخدم ابو علي المنصور الخليفة السادس [١] احد تلك المذاهب لبسط نفوذه على طريقة ذلك العصر •

وهذا المذهب لقب فيما بعد بالدرزية نسبة الى احد دعاته • وهو فرع من الباطنية [٢] ويطلق على اتباعه

[١] الحاكم بامر الله الفاطمي وسمي في ذلك المذهب الحاكم بامره

[٢] او الاسماعيلية اتباع ابن الصباح في زمن الحاكم . وقد سكن (قلعة الاموات) قرب قزوين في بلاد الفرس . وبهرام الاسماعيلي جدد قلعة بانياس وسكنها . والدروز يسمون الاسماعيليين (الموحدين المقصرين) .

قال المغربي في رسالته المنار اليها سابقاً :

« والقرامطة فرقة الباطنية في الاسلام . كان ظهورهم في آخر القرن الثالث للهجرة واستمر مئة وخمسين سنة . وقد زالت الا طوائف متفرقة منهم في سورية (كالدروز) وفي كيليكية وفي الهند (كالبهرة) وزعيمها الاكبر (آقاخان) المشهور وهو المدافع الاكبر عن الخلافة . وهذا يثبت اسلامها» والقاضي احمد ابن البهلول في مجلس (المقتدر) شهد اثناء مناظرة بانهم مسلمون وانما نازعوا في امر الخلافة .

(القرامطة) لانهم اتباعاً لوصية داعيهم كانوا اذا دخلوا (هجر) يعبسون وجوههم ويقرمطون آنافهم على اهلها فاستخدم ذلك المذهب فى امتداد النفوذ الحاكمي فكانت الرسائل رسائل الدعوة اليه تكتب للامراء والسادة حتى للملوك. وملك الروم منهم .وهي وان لم تنقلها كتب التاريخ مجموع بعضها في كتب مخطوطة عند الدروز ولها منهم التعظيم والتقديس.

ولكن يخطيء كثيراً من يعزو الى الخليفة الفاطمي ودعاته ابتداع هذا المذهب . فهو وليد القرن الرابع للهجرة لا وليدهم . ان هم الا واسطة ظهوره في ذلك الشكل وتحويله الى وجهة خاصة ، هو وليد الفلسفة التي بلغت النضوج عند العرب بعد ان تم نقل مصادرها عن الفرس واليونان . بلى ، هو نتيجة لا بدعة : ومن يدرسه على حدة يقع في بُحران فكري واغراب تحليلي كيف لا ، وهو وليد الباطنية ، والباطنية وليدة الصوفية الشيعية والشيعة وليدة الاسلام ؛ وكل فرقة تبني على

القرآن مناظراتها ومجادلاتها المستمدة من فلسفة ذلك العصر، المرتكزة على علومه ولاسيما علم الكلام.

وللراغب في الزيادة نشير الى الرسائل المتبادلة بين ابي العلاء المعري وداعي الدعاة في مصر.

— ٥ —

الدروز والاسلام

ثبت ان الدرزية متفرعة من الاسلام. فهل هي ديانة مستقلة عنه؟ وهل في استخدامها على الوجه الآنف نصول منه؟ لا ولا. فالاسلام من حيث انحصاره في القرآن الحكيم وعدم خروجه عنه، هو مدار هذا المذهب الذي يفسره على طريقته الخاصة ويتعلق كل التعلق بآياته ولو نسبه احد دعاته الى غير النبي عليه الصلاة والسلام؛ ليس بضائره ذلك. فالدين هو اوامر الله ونواهيه كيفما كان وصولها الينا، وهنا نقف.

لم يسمَّ المذهب الدرزي ديانة؛ فكتبه التي جمعت

فيها رسائل الدعوة اسمها (الحكمة) اي الفلسفة . وهو يدل على مصدرها الفلسفي في القرن الرابع • جميع رسائلها في النقد والتفسير والدحض والاثبات مما ينم على مجادلات ذلك العصر ومناظراته الكلامية • والكتب التي تجمع هذه الرسائل غير معروف عددها اما الموجود منها بين يدي الدروز فستة •

إنا اذا سمينا ديناً كل شكل من اشكال العبادة وكل نوع من انواع فهمها وتفسيرها كانت الاديان من الكثرة بحيث يصعب احصاؤها بل بحيث تولد مع كل حيّ وتموت معه ؛ ثم ماذا الاسلام عندئذ غير السنة ؟ وماذا النصرانية غير الكثلكة ؟ ان (التوحيد) صُلب الاسلام وهو ايضاً صلب جميع فرقه - ولا سيما الدروز ، الذين يسمون (الموحدين) ويطلق عليهم الافرنج كلمة (Unitarians) • والتوحيد في النصرانية هو ما حدا القرآن الى احترام تعاليمها وتكريم واضعها

غير ان التثليث [١] دخيل عليها لفهمهم اياها كذلك .
اقول لفهمهم ، فان بولس الرسول اشار في اثينا الى احد
اصنام الهيكل وكان مكتوباً عليه (اله مجهول) قائلاً
هذا الذي ادعوكم لعبادته ـ تقريباً لها الى اذهانهم .
وحقاً ان الانتقال من دين الى دين هو انتقال من اعتقاد
الى آخر في جوهر المعبود كالانتقال من عبادة الاصنام
الى عبادة آلهة ، الى اله مركب ، الى اله واحد
(التوحيد) ، الى آخر ما هنالك من النظريات فيه .

هنالك حجة أبين . وهي تأويل الفروض الاسلامية
وتفسيرها لا نقضها ودحضها . وهو اعتراف مبدئي بها
وهم ليسوا معها كالسيد المسيح مع الناموس اذ قال انه
جاء ليكمله فنقضه ؛ وهاك اشارة الى ذلك ؛ فعندهم :
١ـ الصلاة ، حفظ الصلة مع الخالق واوليائه ؛ ٢ـ الزكاة
تزكية القلوب وتطهيرها ؛ ٣ـ الصوم ، الصمت وصيانة

---

[١] التثليث عبادة البراهمة فالخالق عندهم (برهما وفشنو وسيفا)
اله واحد يرمز اليه بثلاثة رؤوس على جسم واحد .

القلوب بقوله تعالى لمريم : « فكلي واشربي وقرّي عيناً فاما ترَينّ من البشر احداً فقولي اني نذرت للرحمن صوماً فلن اكلم اليوم انسياً » ؛ ٤ـ الحج ، معنوي والبيت هو (التوحيد) موضع السكنى الذي يطلب المعبود فيه بقول المنصور : « ابيت من الاحجار اعظم حرمة » ؛ ٥ـ الجهاد ، في عبادة الله والصلاح . ٦ـ الولاية ، عدم الاشراك وهنالك فروض اضافية :

(١) صدق اللسان (٢) حفظ الاخوان
(٣) ترك عبادة العدم (٤) توحيد الخالق
(٥) الرضى بفعله ، والتسليم لامره .

وفي مذهبهم « الاسلام باب الايمان ، والايمان باب التوحيد ؛ ومذهبهم لم ينتشر الا بين المسلمين ولا سيما الباطنية منهم كالتنوخيين الذين منهم السيد الامير عبد الله التنوخي الشهير ، ويسهل اثبات ذلك بالرجوع الى انساب الاسر الدرزية .

مذهبهم

تسمى الدروز بهذا الاسم نسبة الى أحد دعاتهم نشتكين الدرزي الذي جاء بلاد الشام داعياً الى التوحيد فسمى الناس اتباعه باسمه . وقد يكون انتشر المذهب في غير الشام على يد دعاة غيره فلم يسم كذلك . ولم يلبث نشتكين هذا ان حل عليه سخط الحاكم لتسميته نفسه (سيف الايمان) و (سيد الهادين) وقتل سنة ٤١١ هـ . ولكن لم يتغير الاسم بعده مع ان الدروز يمقتونه اشد المقت ويلعنونه على الرغم من حملهم اسمه ومع انه لم يبق من اثر لدعوته بل الاثر كله لدعوة سواه .

وا كثر ما انتشر هذا المذهب فى الباطنية لاتفاق الاصول وتواردها فان اصوله صوفية . والتصوف مذهب شاع في صدر الاسلام واشتد فى القرن الرابع فعقدت منه حلقات الذكر الباقي شيء منها عند الدروز

واظهر آثاره عندهم التقشف والزهد وحرمان الجسد من الملذات وما يسمى (قهر النفس) ، والاختلاء والاشراق .

وهو والصوفية يرجعان الى مصادر فلسفية هندية ويونانية فالهنود (البوذيين منهم) اعتقدوا ولادة العالم من جديد في اقسام معينة من الزمان [١] ورجوعه الى الاتصال بخالقه قبل تلك الولادة . وكان نساكهم صوفيين من حيث قهرهم لانفسهم [٢] والقضاء على ملذاتهم الحسية كسمل اعينهم وكمّ افواههم وسد آذانهم والتحديق بالشمس وجمودهم واليونانيون اعتقدوا اتصال العالم بخالقه وانه هو مظهر من مظاهر العقل الموجد . والرواقيون أو اصحاب المظال منهم كانوا يقولون بامكان الاتصال ، او الاشراق في مذهب الصوفيين ، ومثلهم كانوا يعتقدون ان الوصول الى

---

[١] كل مئة الف سنة على حسابهم ولا نعلم اذا كانت سنتهم كسنتنا . [٢] الملل والنحل للشهرستاني

ذلك الاتصال لا يتم الا بهجران اللذات والتجرد من الحس وحفظ الاخلاق من الشوائب • ولأفلاطون يد في حمل الناس على هذا الاعتقاد فهو القائل بوجود عالم عقلي موجد غير عالمنا يمكن الاتصال به بالتجرد والاشراق •

والدروز — وان كان مذهبهم صوفياً، والحلاج والجنيد من الاولياء المكرمين عندهم — هم على شيء من الخلاف مع الصوفية • فهنالك التقمص أو التناسخ، وهو نظرية فلسفية قديمة نشأ المذهب في البلاد التي نشأت فيها • فالمصريون كانوا يعتقدونه ويقولون بانتقال الارواح الصالحة الى اجساد بشرية، والشريرة الى اجسام حيوانات • الا ان الدروز تركوا الشق الثاني وتمسكوا بالاول، لا فرق بين الصالحة والطالحة فهي جميعاً تنتقل الى اجساد بشرية دون امهال • وفي ذلك اختلافها عن الشيعة التي تدين به على شكل خاص كالحلول والرجعة عدا اختلافها عن النصيرية • والهنود

كالمصريين يدينون بالتناسخ وفي كليلة ودمنة الكتاب الهندي الذي ترجمه عبدالله بن المقفع عن الفارسية؛ مثال على ذلك في باب البوم والغربان بمثل « الناسك والفارة » [١] الا اننا لانجزم بان فلسفة الهنود في التناسخ مصدر من مصادر الدرزية التي اتصلت تواً بالفتح . فان الهند فتحت في القرن الخامس على يد يمين الدولة محمود بن سبكتكين . بل نقول إنه نقل الى العربية شيء منها قبل الفتح مترجماً لا عن الهندية لعدم عناية العرب بتعلمها، بل عن الفارسية، وفارس جارة الهند .

وهنالك التجلي وهو اعتقاد قديم كان اليونان يعتقدونه ويقولون بتجسد آلهتهم ولهم عنه الروايات الكثيرة ومثلهم اتباع عيسى عليه السلام، فانهم يعتقدونه الإله متجسداً .

---

[١] نروي هذين البيتين للفكاهة :

إعجبي امنا لصرف الليالي   جعلت اختنا سكينة (فاره)
فازجري هذه السنانير عنها   واتركيها وما تضم الغراره

هذا وقد قلنا ان الدروز لا يعتقدون التناسخ مع الحيوان

ولهم احكام خاصة ، في الزواج مثلا ، فهم يجرون العقد الاسلامي • الا انهم لا يجيزون اتخاذ الضرائر بل يكتفون بزوجة واحدة تشديداً منهم في اتباع الآيات الكريمة حتى آخرها « ... فواحدة » ، دون اكتفاء واجتزاء• ولا يبيح مذهبهم الطلاق الا لعلة العقم والزنا والجنون وفيما خلا ذلك فلها نصف ما يملك « حتى الثوب الذي على جسده » • ولكنهم يجارون اهل السنة في الطلاق ؛ لا في الجمع بين زوجين ، اتباعاً للشرع ولانهم « وديعة في حضن الاسلام » الا انهم لا يردون مطلقة• ولهم احكام في الوصية بحيث يحرم احدهم ميراثه من يشاء ويوصي لمن يشاء من اهله او من (اخوان التقى) •

ويشترط في مذهبهم الكتمان حتى انه لا يطلع عليه منهم الا فئة العقلاء، وقد اشرنا الى ذلك فيما سبق. وهو كما قلنا محشو بالمباحث الصوفية والمناظرة والرموز التي يصعب على غير الخبير فكها . وقد انتشر في القرن الرابع والخامس للهجرة وبقي في فلسطين . وفي حلب

في زمن الحمدانيين سراً وبعدهم جهراً . وفي بلاد الشام وكان فيمن اقبل عليه الامراء التنوخيون الذين نزحوا اليها من العراق وكانوا من الباطنية • وتقلص ظله عن مصر وبعض الاقطار التي كان يملكها الفاطميون ، بعد الحاكم المنصور الفاطمي • هذا وان الاضطهاد الذي صاروا يخشونه قادهم الى التشديد في الكتمان •

ومنهم سكان جبل حوران المسمى جبل الدروز بعد حلولهم فيه ونحن في صدد الكلام عنهم خاصة •

وآخر كلمة لنا عن هذه الطائفة هي : — ان تسميتهم دروزاً خطأ فذلك يحصرهم في اتباع (الدرزي) وقد دعا كثيرون غيره الى التوحيد في جميع البلاد التي دانت للخليفة المنصور مساعد هذا المذهب على الظهور ؛ ومن الثابت لدينا اذا صحت المصادر ان هذه التسمية ضربت بينهم وبين سائر ابناء مذهبهم في كثير من الجهات حتى غمرتهم موجات السواد الاعظم في الاسلام • ولننتقل الآن الى بني معروف في حوران •

القسم الثاني

جبل الدروز

الباب الاول

—١—

جغرافيته [١]

الى الجنوب من دمشق وعلى اطراف غوطتها الفناء تقع تخوم نجد من اخصب البقاع كان يسمى جبل حوران نسبة الى سهل حوران الفسيح الذي يقع هذا الجبل بل هذا النجد الواسع في شرقيه ليقيم آخر معالم

---

[١] لا يوجد عنها معلومات كافية في كتب الجغرافية التي تخطئ كثيراً في جغرافيته المختصرة . وهذه المعلومات تحققناها نحن بانفسنا على طريقة خاصة تقريبية .

للعمران وليثبت آخر عزم للمدنية في وجه التلاشي الفاغر على اطراف (الوعر) المتثائب عن بادية الشام ليبتلع آخر أثر من آثار الحياة المتحضرة الثابتة • وهذا النجد مع ما يتبعه من جوانب سهل حوران يسكنه الدروز وهو يسمى باسمهم لان اكثرية سكانه الساحقة منهم •

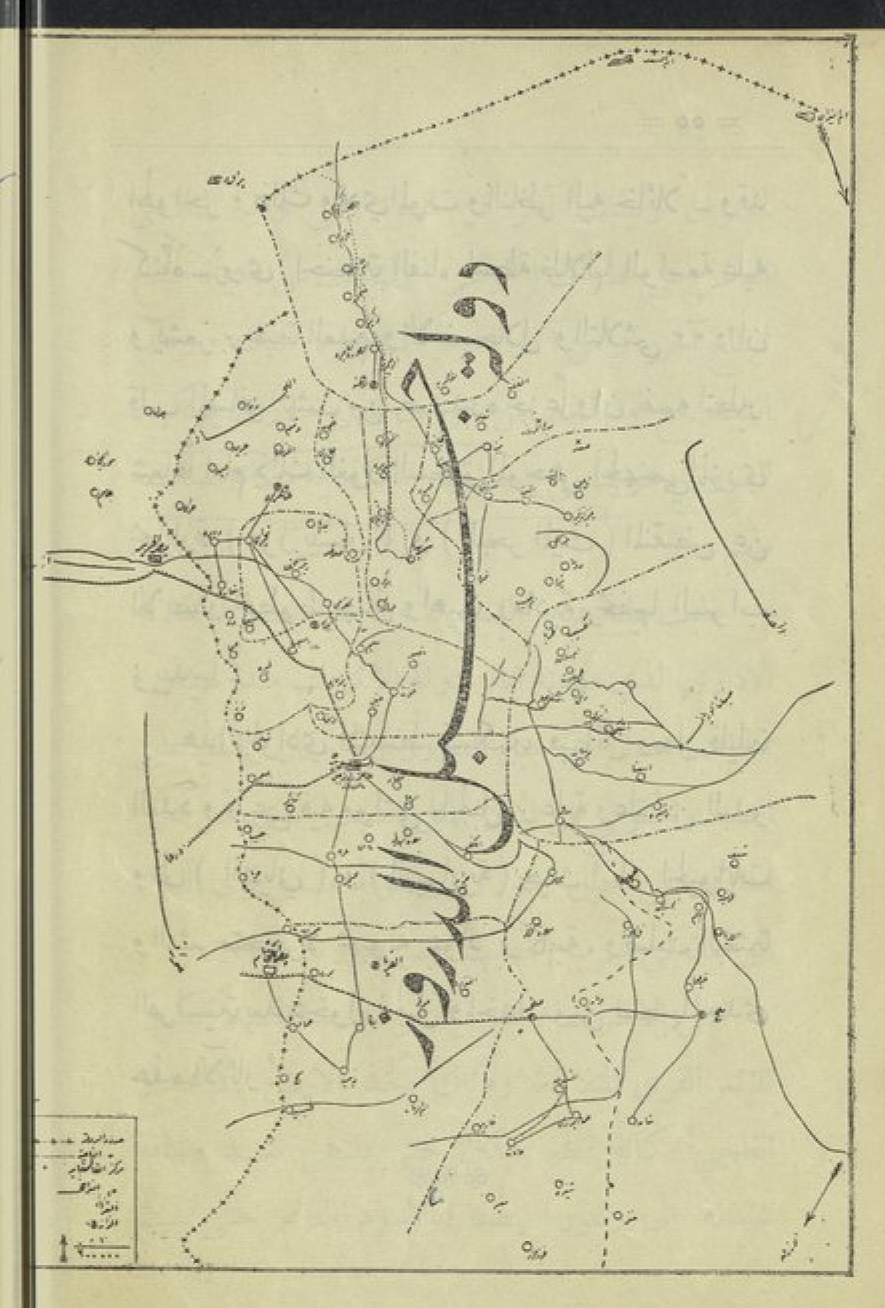
غلبت عليه هذه التسمية ولاسيما بعد استقلاله الاداري الذي منحته اياه دولة الانتداب منذ سنتين . اما اسمه هذا (اي جبل الدروز) فقد كان يطلق على النصف الجنوبي من لبنان لمثل السبب الذي حمل على اطلاقه على جبل حوران . وهو ماعدا قرى اللجاه الواقعة في غربيه اخصب ارض سورية قاطبة •

على الاطراف الشرقية من هذا النجد الكبير تنتشر القرى المتفرقة وهناك تأخذ الارض بالانحدار الفاجئ كأنه قطع سكين حتى ينتهي بعد مسافة شاسعة الى وعور (الصفا) الاسود القاتم حتى في

الهواجر . ذلك وادي الموت والناظر اليه خائلاً - وقد كناه - يرى اجنحة الفناء باسطة ظلالها الواسعة عليه ويشعر برهبة العدم والاضمحلال والتلاشي ... ان قلب المسافر ليثب من صدره جزعاً وان نفسه لتطير شعاعاً امام ذلك الغور السحيق الموحش الجهنمي المزري بحرارة (غور بيسان) و (البحر الميت) المنقبض عن الابصار بخطوط جبال واهية رمادية يخفيها السراب ويبديها .

هذا الوادي المنبسط تسكنه قبائل رحل قليلة العدد وترعى فيه مواشي الجبل برعاية رعاة من البدو والى (الدياثي) و (الهبارية) حيث آثار الحيوانات والبشر متحجرة مجبولة بمواد بركانية ، وصلت البعثة الفرنسية بعد دخول الجبل واخذت ممن صحبها احدى هذه الآثار .

❀❀❀



« خريطة جبل الدروز »

حدوده : يحده شمالاً اراضي دمشق او « الغوطة » وهي جنات واسعة جداً . وغرباً (اللجاه) وسهل متصرفية حوران . وجنوباً (الجبانة) وحكومة الشرق العربي ، والجبانة هذه قفر عظيم يتصل بوادي الحجاز وشرقاً (الصفا) و (الرحبة) وجبال (الحارّة). وهي وعور في صدر بادية الشام الواسعة المترامية الاطراف

مساحته : مساحته المعمورة ٧٩٢٠ سبعة آلاف وتسعمائة وعشرون كيلومتراً مربعاً كما يأتي : من الشمال (الصورة) الى الجنوب (خربة عواد) طوله ١٢٠ كيلو متراً أو ٢٠ ساعة مطايا على معدل ساعة المطية ٦ كيلو مترات . ومن الشرق الى الغرب ــ من الرشيدة الى صما ــ عرضه ٦٦ كيلو متراً أو ١١ ساعة مطايا ٠٠ اما أراضي المرعى التابعة له فتمتد نحواً من ٨ ساعات الى الجنوب و ١٥ ساعة الى الشرق على القياس السابق .

حاصلاته : مساحة الارض المفلوحة ٩٠٠٠ تسعة آلاف فدان يزرع ثلثها سنوياً قمحا وشعيراً . والثلث قطانياً . والثلث الثالث يهيأ للزرع في السنة التالية بحيث يستريح سنة ويزرع سنة . فالثلث الاول يستعمل خمسه للشعير اي ٦٠٠ فدان . والاربعة الاخماس الباقيـة للقمح اي ٢٤٠٠ فدان . الفدان يستهلك ٣٠ مداً من القمح او الشعير بذاراً . فيعطي عن مد القمح ٨ امداد غلة على اقل تعديل وعن مد الشعير ١٢ مداً

والثلث الثاني يزرع ربعه حمصاً اي ٧٥٠ فداناً والثلاثة الارباع « ٢٢٥٠ فدانا » حبوباً مختلفة كجلباني ونعماني للحيوانات . فيغل مد البذار من الحمص اربعة ومن سائر الحبوب اثنين .

فتكون الحاصلات (وذلك بضرب امداد البذار في الافدنة بامداد الغلال) كما يلي :

	مد	طن	كيلو
قمح	٥٧٦٠٠٠	١٠٠٨٠	١٧،٥٠ في المد
شعير	٢١٦٠٠٠	٣٠٢٢	١٤ » »
حمص	٦٠٠٠٠	١٠٥٠	١٧،٥٠ » »
قطاني	٩٠٠٠٠	١٢٣٥	١٧،٥٠ » »

النوع	رطل
سمن	٧٠٠٠٠
صوف غنم	٨٠٠٠٠
شعر ماعز	٨٠٠٠

ومن الحاصلات غير المهمة العنب والزبيب، فان ١٣٠ فداناً تزرع كرماً اكثرها في الكفر وقنوات والسويداء وسهوة الخضر. ومتوسط علو هذه الاماكن الف ومائتا متر عن سطح البحر. وتقدر الغلة السنوية باربعة آلاف قنطار من الزيني والبلدي والحلواني والقاصوفي وغيرها من الاشكال والالوان، ويستهلك نصفها للاكل ويصنع النصف الثاني زبيباً ودبساً.

حيواناته :

نوعها	عددها
غنم	١٥٠٠٠٠
ماعز	٥٠٠٠٠
بقر	٤٠٠٠٠
حمير	٢٠٠٠٠
خيل	٩٠٠٠
جمال	٧٠٠٠
بغال	٢٠٠٠

صادراته : ان ما ينفق في جبل الدروز يزيد عن ثمن صادراته احياناً فترى الفلاحين مدينين لاصحاب مخازن الحنطة (البوايك) بدمشق لما يستلفونه منهم . ولا نستثني الا النفر القليل من الاغنياء . ومما يؤثر عنهم وجدير ذكره هو ان غناهم استغناء . فلو كانوا ينفقون ما ينفقه اللبنانيون مثلاً لحلّ بهم الافلاس

العاجل . وليس في ذلك اشارة الى غنى ارض لبنان !!.

وهاك مقدار ما يصدر للخارج :

قمح	٢٠٠٠٠٠	مد
حمص	٣٠٠٠٠	»
سمن	٢٠٠٠٠	رطل
صوف	٦٠٠٠٠	»
غنم	٥٠٠٠٠	راس

اما الشعير والقطاني وغيرها مما بقي فتنفق على العاف والمؤونة في الجبل .

صناعاته : اهمها اللباد والسجاد والبسط مما يستهلك كله في الجبل .

السجاد ـ يوجد نحو خمسين نولاً . وقد تعلمت النساء صناعة السجادفي الاناضول ايام كنّ مع ازواجهنّ في ذلك المنفى . ولذلك هذا السجاد اشبه شيء بالسجاد الاناضولي .

البلس ـ بسيطة الصنع ، بيضاء او سوداء ، كميتها

أوفر كثيراً من السجاد ، فلا تقلّ عن اربعة او خمسة آلاف بساط كل سنة .

البسط – اتقن صنعاً ، ذات الوان مختلفة وشكل جميل يقيم طويلاً اذا صح صباغه المستجلب من اوربة.

العجميات – نوع من اللباد يستعملونه في الشتاء فوق البسط للدفؤ لانه من الصوف الخالص السميك ويستعمل تحت الفرش او عوضاً عنها ، بيضاء اللون مزركشة بكنار احمر ورسوم في وسطها ، يصنع منها اكثر من ستة آلاف سنوياً .

الاطباق – يشتغلها النساء ، فيستعمل القليل منها لتقديم الطعام ، والباقي للزينة في الجدران .

انهاره : ليس في الجبل —— وهو نجد كما قلنا —— انهار تجري في الصيف بل انها سواقي يسمون الواحدة منها (وادياً) ومتى جرت فيه مياه الامطار يقولون مستبشرين « جاء الوادي » واهم (أوديته) :

وادي اللوا – من الشرق الى الشمال حتى (الغوطة)

وادي الشام ـ خمسة فروع تصبّ في الصفا نحو الرحبة •

وادي قنوات ـ الى الغرب في سهل حوران •

وهنالك وادي السويداء ، والزيدي ، والثالث ، والجعار ، والعاقب •

جباله : لما كان هذا الجبل نجداً اي ارضاً مرتفعة واسعة في اعاليها السهول المخصبة كان حظه قليلاً من الجبال فهي ماعدا جبلي (القليب) و (الاصفر) تلال كأشهب ، وضلفاء ، وشيحان ، وابوطميس ، وعزران

مياهه : مياه هذا الجبل قليلة جداً وهو امر طبيعي لما وصفناه من شكلها الجغرافي ، وفي ما خلا القرى الواقعة على السفوح قلما تجد ينبوعاً • واهم ينابيعه في (القينة) وقد شرعت الحكومة تجرها الى السويداء عاصمة الجبل ، ولن يمرّ بضعة شهور حتى تكون قد وصلت اليها • ومن القرى التي فيها ينابيع : قنوات ، الكفر ، ساله ، نمره ، رساس • في هذه القرى وقليل سواها

تزرع اشجار الفاكهة والبقول وما ماثلها .

والبلاد في حالها تلك من قلة المياه تنصرف الى المزروعات التي تحيى بالامطار كالقمح والشعير والحمص اما الذرة فليست منها ، ولذلك نرى الناس يعلقون الآمال بالغيوث التي بها حياتهم . ولا يطمئن بالهم في الشتاء حتى تجري الاودية فتراهم يهنيء بعضهم بعضاً ويستبشرون بالاقبال . فاذا شحت السماء وحبست بعاع غيثها تأخذ اسعار الحنطة في الارتفاع في اسواق دمشق . فأن حوران اهراء سورية ، وميزان اسعارها في يد الطبيعة . فاذا هبطت كفة الامطار هبطت الاسعار .

لقد كانت المياه في القديم اكثر من اليوم واشدّ غزارة . وقد توفرت على ذلك الادلة . ففي الآثار التي سنتكلم عنها فيما بعد كثير من الفاكهة المنقوشة التي يستدلّ بها على وجود المياه التي انبتت غرائسها . اما اين ذهبت هذه المياه فامر سهل التعليل وذلك ان

البلاد مرّ عليها بعد عمرانها عهد بداوة اهمل فيه الزرع لانصراف البدو الى الضرع. فهم رعاة قبل كل شيء فغارت الينابيع التي فجرها المتحضرون قبلهم. وانك لترى اماكن يسمونها (نعصاً) تعلن فيها المياه عن وجودها تحت الارض وفي احد هذه الاماكن تسمع خريرها العميق تحت الارض من بين الشقوق الشطونة. ولا ننس ان تغوير المياه كان واسطة من واسطات الارهاق في الحروب والغزوات، وفي مافعله ابرهيم باشا المصري شاهد ودليل.

على ان هذه المياه القديمة لم تكن في كل قرية ولا على جانب عظيم من الغزارة والتبجس. فالدليل على قلتها منذ البدء انها كانت تفجر تفجيراً وان الرومان بنوا كثيراً من الخزّانات فى امهات القرى وهم يسمونها بركاً.

تربته: طبقات ارضه بركانية واحجاره إذن سوداء. وانك لترى حول بعض القمم آثار البراكين ورواسبها

القديمة جداً . وفي قمة ـــ او اثنتين ـــ فوهة بركان منطفئ . على ان التربة على جانب عظيم من الجودة والخصب وهنالك كثير من المراعي الممرعة . على ان القسم الشمالي من الجبل وهو المسمى وادي اللواء المحاذي لوعور اللجاه البركانية تربته حارة قليلة الخصب قلما ترى سني اقبال حتى ان الحكومة اعفت اسكانه من بعض التكاليف والضرائب هذه السنة . ولا ننس ان الحرث فى الجبل مقصور على ماحول القرى من لاراضي وان هنالك اراضي واسعة غير محروثة ومعظمها مراع .

هواؤه : جاف حار في الصيف وبارد فى الشتاء . وحار جداً في نهار الصيف وبارد في ليله شان الاقاليم البعيدة عن البحار . الا انه اجمالاً هواء معتدل كهواء لبنان لولا جفافه وشدة رياح الصيف فيه . وعلى الرغم من فساد مياه الشرب لان اكثرها مجموع في برك يسمونها « مطخاً » فان صحتهم نشيطة حسنة واجسامهم قوية.

غير انه لا بد من الاشارة الى وفيات الاطفال لقلة العناية بهم ، حتى انه لا يعيش الا الجليد القوي البنية الصحيح التركيب الذي يعصى جسمه على الامراض وجراثيمها .

حراجه: كانت حراجه فيما غبر كثيرة واسعة مستأشبة ولكن عدت عليها عوادي الفؤوس وافناها الغزو والتحطيب. فلم يبقَ الاحرج السويداء. والرحا. والكفر . وقنوات . وفيها البطم والسنديان والزعرور ومساحتها نحو ١٠٠ كيلو متر مربع .

ولم يكونوا يعرفون قيمة الحراج . على ان الزعيم الكبير المرحوم شبلي الاطرش كان يوصيهم بالابقاء عليها ويشير الى فائدتها في نزول الامطار واحتفاظ الارض بهذه الامطار بواسطة اوراقها المتساقطة . وكان يقول لهم ان المحل والقحل بانقطاع الحراج أما الآن فانهم يحرسونها .

وكانت اللجاه تلك الارض الصخرية حافلة باشجار

البطم فقطعها البدو القاطنون هناك على تعاقب السنين .

سكانه : يبلغ عددهم ٦٥ الفاً تقريباً وربما اناف على ذلك فان الاحصاء لم يتم . جلهم من الدروز الذين تكاثروا فيه سنة فسنة منذ دخلوا الجبل . ويوجد من المسيحيين ما يقرب من ٥ آلاف اكثرهم من الارثوذكس اما اهل السنة فقليلون جداً . ولسنا نعد قبائل الرعاة فان هذه القبائل التي هي رعاة الدروز على وفرة عددها تحل في الجبل وترحل عنه بحسب مواسم المرعى . فهي في الشتاء تشرق عنه وفي الصيف تغرب اليه .

امهات قراه التاريخية

السويداء

السويداء تصغير سوداء كما قال (ياقوت) — هي حاضرة جبل الدروز — ذات الاحجار السوداء [١] .

---

[١] احجار الجبل جميعها سوداء اللون . والسقوف تقام على (الربد) اى الاحجار الطويلة المغنية عن الخشب او الحديد .

واليها ينسب عامر بن دغش السويدائي المتفقه ببغداد على (ابى حامد الغزالي) و (ابي الحسن بن الطيوري) والمتوفى سنة ١١١٢ م .

والسويداء بلدة تاريخية بنى فيها النعمان الغساني في القرن الرابع للميلاد قصراً لم يبقَ منه الى اليوم غير رسوم . وانك لترى فيها هنا وهناك احجاراً اثرية مبنية في الحيطان العادية . كما انك تشاهد ذلك في معظم قرى الجبل سواءً كانت الاحجار من آثار القرية او منقولة اليها للبناء والزينة .

موقع السويداء على منبسط في سفح بعيد ما بين اوله وآخره ، ينتهي في السهل سهل حوران وينيف سكانها على الستة آلاف . ليس فيها ينبوع بل هنالك ثلاث برك رومانية عظيمة سنتكلم عنها مع الآثار وعمدان يونانية ورومانية . وقد كانت تسمى بلدة مكسيميان (Maximianopolis) وهي مركز الحكومة والنفوذ مذ حلّ الدروز في الجبل .

قنوات

على بعد اقل من ساعتي مطايا من السويداء ، بين البساتين القليلة والمياه الكثيرة وعلى سفح منبسط قليلاً في جانبه وادٍ ، تقع قنوات Cunatha القديمة احدى المدن العشر Decapolis . لا يتكلم التاريخ عنها بعد الفتح الاسلامي ولكن الآثار تنطق بعظيم شأنها في القديم . ويرجح انها هجرت بعد ذلك الفتح او خمل ذكرها . وقد كانت قبل الرومان . يدلك على ذلك مافيها من الآثار التي سنتكلم عنها في مكانها من الكتاب . فهنالك هيكل الشمس والبعل وهيكل جوبتر (المشتري) والملعب الروماني والطرقات المرصوفة من قدم وكثير غيرها من الخرائب .

هي الآن مركز شيخ العقل كما كانت لابيه وجده من آل الهجري وهي اصغر من السويداء . على انها مرغوبة كثيراً من الزائرين لعذوبة مائها وجمال مشاهدها وقربها من العاصمة .

صرخد

يسمونها محرّفة (صلخد) وهي تقع في سهل على بعد ست ساعات مطايا من السويداء الى الجنوب الشرقي ليس فيها ماء الا ماتجمعه البرك والصهاريج • فيها قلعة عظيمة جداً وقديمة مبنية على تلة مرتفعة بانحدار كثير • تدلّ آثارها على انها عاصرت دولاً كثيرة • ففيها وجدت آثار نبطية [١] وآثار الانباط تجدها البعثة العلمية (التشكوسلوفاكية) الآن في قرية (شيخ سعد) من حوران وقد وجدت في بصرى ووادي موسى •

وكان لها شأن في الاسلام ولا سيما في زمن السلطان صلاح الدين فقد كانت قاعدة ملك عزالدين بن اسامة وأقوش الافرم احد امراء بني ايوب • وكانت زمناً قاعدة (جبل بني هلال) نسبة الى سكانه • قال الشاعر في وصف خمرها :

[١] صخرة اللات التي عبدها الانباط والعرب

ولذ لطعم الصرخدي تركته
بارض العدى من خشية الحدثان

بين قلعتها وقلعة بصرى طريق مرصوف قديم من صنع الرومان وكان منها الى بغداد طريق ممتد مرصوف ايضاً طمست آثاره يعرف بالرصيف كما ذكر ابن سعيد ونقل عنه ابو الفداء • ومن القرى التي كانت تابعة لها قرا • ومتان • وعرمان •

وصرخد اليوم مركز احدى القائمقاميتين التابعتين للسويداء •

شهبه

بضم الشين كما ذكر (ياقوت) ينسب اليها مخلد الشهبي الزاهد • وينسب اليها ابن قاضي شهبه صاحب « الطبقات » • وكان اسمها Philipopolis اي مدينة فليب العربي ملك هذه الديار • ولا تقل شهبه شأناً عن قنوات • فان فيها الطرق المرصوفة الباقية الى يومنا هذا ، والاعمدة ، والحمامات الكبيرة ، والسور المنهار

بابوابه الخمسة المتداعية ، وقناة الماء التي تصل اليها من مكان بعيـد وبقايا القصور غارقة في الارض • ومن آثارها الملعب الكبير وعمود رفيع يترجح ويميل ذات اليمين وذات اليسار عنـد اقلّ دفعة حتى من هبوب الريح •

تقع القرية على مرتفع من الارض بل جبل جميل المنظر على بعد اربع ساعات مطايا من السويداء . وهي مركز زعامة بني عامر والقائمقامية الثانية التابعة الى السويداء .

والى الجهة الغربية منهاوعر ممتدّ موحش يتصل باللجاه ، وفي اواه فوهات براكين ثلاثة منطفئة حولها الرواسب .

ام الجمال

خربة فيها من الآثار ما هو غارق في الثرى وماهو ظاهر بكثرة . الا انها مهجورة يفكر الدروز اليوم بسكناها . وقد بنوا فيها البيوت وهي على بعد ١١

ساعة او ٦٦ كيلو متراً من السويداء الى الجنوب وهي قرب آخر حدود الجبل الجنوبية العامرة .

سيع

خربة على بعد ساعة من قنوات فيها معبد عجيب وبقايا مذبح . وفيه وفيها تماثيل تأخذ بمجامع القلوب نقل معظمها الى متحف السويداء . فمنها الخيول المسرجة ورسوم الحيوانات كالأسود والغزلان وما شاكل .

اهم القرى

هنالك قرى كثيرة تفوق بعض ما ذكرنا شأناً وعمراناً مثل عرى (قرية المغفور له الامير سليم الاطرش) . والقريا (قرية سلطان باشا الاطرش) . ومتان (قرية المرحوم مصطفى النجم) وعرمان (قرية نجم بك) . وملح . وشقا . ولاهثه . وعاهره .



آثاره

ان فيماسننقله من اقوال الكتاب الغربيين [١] الذين زاروا الجبل وصفاً لكثير من الآثار . فنحن إذن سنوجز حيث يقتضي الايجاز لاسيما ونحن لسنا من الاخصائيين في علم الآثار ، والاخصائيون لم يتحفونا بمطالعاتهم عن آثار الجبل • على ان المسيو (فيرولو) رئيس قسم الآثار في المفوضية العليا ؛ قد نشر مقالاً عنها في مجلة سيريا الافرنسية ، ولكننا لم نقف عليه بعد •

معظم الآثار في الجبل روماني ، وجانب منها يوناني ؛ وقليل حثي ونبطي عربي

يحيط بشهبه سور عظيم معظمه باق الى يومنا هذا له خمس بوابات شاهقة متينة • وفيها ملعب روماني يصعد الى مقاعده الحجرية بدرجين عن جانبيه وواحد في وسطه • والى جانب الملعب اقبية مشدودة البناء

[١] منهم Wedington قنصل بروسيا بدمشق .

ذات قناطر مائلة جميلة ؛ على ان الحمام اغرب ما فيها فهو ذو طبقتين في جوانب غرفهما مداخن في الحيطان تشبه مداخن الطراز الحديث : وهذه المداخن مبطنة بقساطل فخار مما يدلّ على ان الرومان كانوا يجيدون صنعه اجادتهم صنع الطين : وفي جوانب الحمام غرفتان مستديرتان . واليه تجلب المياه عن بعد ساعة في الجبل على قناطر هائلة واسعة عالية لا يزال معظمها قائماً .

في شهبه ايضاً كنيسة قديمة ظاهر فيها حائط الهيكل بكامله . ومن باب المدينة القبلي ومن بابه الشرقي يمتد سوقان مبلطتان تلتقيان في وسط المدينة القديمة على شكل زاوية قائمة ، والبلاط باقٍ على حاله مع انخفاض في بعض الاماكن . وفي مسافات معلومة من الطريق تبدو افواه المجاري (المجارير) التي كانت تستخدم للمياه الملوثة والاقذار . وهنالك داران او ثلاث منقوشة ارضها بالفسيفساء الملونة ، منها غرفة لا تزال

على روائها؛ وفي شرقي البلد قاعدتا قوس نصر ضخمتان .

وفي قنوات هيكل الشمس الذي بناه هيرودس الاول (اغريبا) ، وبقايا هيكل المشتري (جوبتر) اعمدة رائعة ، رائعة الصنع عند مدخلها ، وفيها شوارع مبلطة واسوار ، وملعب روماني بالقرب منه غرفة حمام مربعة صقيلة الحجارة ؛ تجري تحتها المياه ، باقية منحوتة في الحجر ، نحو الملعب . وكاتدرائية للنصارى كانت من قبلِ القبل هيكل باخوس (اله الكرمة) عليها صلبان محدثة بعد بنائه المزدان بنقوش الدوالي والعناقيد وعلى كتف الوادي ايضاً برج يسمى قلعة النبي ايوب وهنالك اروقة واقبية كثيرة ومدافن وآثار مطاحن اقنيتها حجرية .

وفي السويداء ثلاث برك كبراها على كتف المدينة بناها هيرودس الملك خزاناً للماء تزيد مساحتها على العشرين الف متر مربع ولا تزال تستعمل مياهها للشرب والغسيل . وتخرج منها قناة تصب في البركة الواقعة

في وسط القرية • وكان الرومانيون يجرون مناوراتهم البحرية فيها للتمرن والتمرس • هنالك ايضاً بقايا هيكل قديم عمدانه في دار آل الاطرش ؛ وقد وجدوا على احدها كتابة نقلوها الى المفوضية لان فيها ذكر الفرقة الغالية (الفرنسية القديمة) الثالثة في جيش الرومان •

وفي صرخد قلعة اكبر من قلعة حلب على قمة تلة يحيط بها خندق عرضه نحو عشرة امتار ، بينها وبين قلعة بصرى على بعد اربع ساعات طريق مرصوف • وفي صرخد جامع على جدرانه كتابة كوفية كما على احجار القلعة • وقد وجدوا حوله آثار نبطية وعمورية وفيها بركة رومانية كبيرة في وسطها اعمدة •

وفي كل من المشنف وسليم هيكل مندرس واعمدة وابواب واحجار منقوشة •

وفي شقا دور وقصور وهيكل •

ولم يبقَ في مَلح وذكير غير ابواب من الحجر ؛

ويقال ان ملح كانت تسمى ملح الصرار لوجود باب كبير يصر صريراً عالياً يسمع من مكان بعيد لدى فتحه واغلاقه .

وفي الهيت دير قديم وبرج . وفي القريا جامع وبركة رومانية بجانبها اعمدة .

اما في سيع فقد وجدت تماثيل كثيرة نقلت مع ما نقل من القرى الى متحف السويداء البديع المدهش الذي أسسه الكبتن كاربيه .

— ٢ —

تاريخه

الهجرة اليه

لانستطيع ان نوقت تاريخ نزوح الدروز الى هذا الجبل . بل جل ما نعلمه هو ان اول من نزح اليه آل الحمدان فانهم نزحوا من لبنان على اثر بطش الامراء التوخيين بهم في الحروب القيسية اليمنية وذلك منذ

قرنين تقريباً . ثم تبعهم كل مغلوب على أمره ناقم على
زمانه في لبنان ووادي التيم وفلسطين وجبل الأعلى
في حلب ، والاقليم والداخلية .

لقد كانت هجرة القبائل والعشائر في ذلك الزمن
من الهنات الهينات كلما غشاها من الظلم غاشٍ ، او نابها
من صروف الدهر منتاب . ذلك لانهم لم يكونوا
مقيدين مثلنا بقيود الحضارة . فلا البيوت ولا الأثاث
وما أثاث منزل من منازلهم الا حمل مطية . ولا البلاد
اذا جارت بعزيزة . فما تحول مثل هذه الامور دون
رحيلهم وهجرتهم . وهل الحمى الا حيث يعزّ بنوه ؟
وهل يعز مفتدي الرغد بالمجد . وهل رغد حيث يشوب
لذائذ العيش وبهجاته ذلّ البقاء ؟

يا لهدى الجدود ! انهم كانوا يرحلون باسرتهم
وقبيلهم ، فما يستقرون الا حيث توقد نار القرى حول
الاطناب ، وترفع اعلامهم على الاعلام غير منكسة .
وتسل السيوف للذبّ والذود غير مغمدة . اما اللجوء

والاحتماء فسبة تجر السبة وذل يلد الذل .

ويا لضيعة البنين ! تفرقوا تحت كل كوكب .
وهربوا بانفسهم ضاربين في منا كب الارض ليشاطروا الامم ازياءها وثروتها واسماءها ، لا اخلاقها وامجادها واعباءها ... ما اكثر البلدان والرجال والنساء !
ولكن هل للمرء غير حمى واحد واب واحد وام واحدة ؟.

رحل الدروز النازحون برجالهم ونسائهم واستبدلوا بالحمى المستباح حمى منيعاً يعز على من رامه ويطول .
ثم اخذوا يهابطون الاعماق باعراقهم . ويكافحون الاجواء بفروعهم . حتى بسقت غصون تلك الدوحة الشماء . ورسخت اصولها برغم العواصف الهوجاء .

واي كفاح اشد من كفاح عشيرة مستضعفة رمت بنفسها في اتون الغزاة من البدو سوم الطائر المهيض الجناح يقع على جماعة البزاة .

العجب كل العجب لتلك العشيرة المغلوبة على

امرها المبتلاة بعلة الانكسار واليأس الملتمسة الراحة من عناء ما نابها ، كيف تلقي عصا تجوابها حيث ينتظرها القتال والنضال ، كأن الانكسار لا يشفى الا بالانتصار فلا راحة للقوم المستسلمين .

ثبت آل الحمدان ، ونصرهم الله نصراً مبيناً ، فتبسطوا على الارجاء الجبلية وردوا غارات البدو بل اجلوهم وزحزحوهم عن اماكنهم ليحلوا فيها . وكانوا نواة الدروز في حوران ، فالتف حولهم كثيرون من مهاجري الدروز مع عيالهم او قل العشائر او الاسر برمتها لشدة العصبية في ذلك الزمان ومغامرة الاسرة كلها من اجل فرد من افرادها .

ولم تكن المهاجرة للارتزاق كما هو شأنها مع ابناء اليوم . فمن يرمي بنفسه في غمار تلك الغزوات مع عشيرة ضعيفة ؟ اكثر ما تكون المهاجرة الى صقع آمن . ولكن ما كل امرئ ينتمي الى عشيرة ، او ان انتمى يكون ممن تقوم العشيرة وتقعد لهم . فكان

إذن من الافراد المتضايقين المضطهدين جالية كبرى توطنت حوران .

فاما الاسر او العشائر فانها شاركت الحمدانيين في شيء من السيادة والاستقلال الداخلي ضمن منطقتها وعشيرتها على شكل من الاقطاع . ذلك لانها كانت تكافح من اجله وتشارك الحمدانيين في كفاحهم وتشاركهم في القسائم . ولا تزال هذه العشائر الى اليوم متمتعة بجانب من نعمة استقلالها الاول الاما سلبتها اياه حكومة النظام الحالية . ما عدا السادة الاولين فانهم لم يبق منهم الا افراد ضعفاء اصبحوا متفرقين في بعض القرى بعد غلبة الطرشان عليهم .

واما الافراد الكثر على توالي الايام ، فانهم اصبحوا (العامية) اي العامة ويقصد بها الطبقة الفقيرة التي آل امرها الى ذل عظيم قبل ثورتها التي سيأتي الكلام عليها . فصارت تستخدم للفلاحة وتسكن البيوت التي يخرجها منها شيوخ القرى من ابناء العشائر

متى ارادوا ، بل (يرحلونهم) من القرية متى شاؤوا دون تعويض .

هكذا تكونت هذه الجماعة في بدئها من سيد ومسود ، ثم نشطت الى التساوي ولا تزال . فان الجماعات في رقيها تستبدل بارادة الفرد المطاعة (ارادات) منها تعم بنسبة ترقيها .

❀❀❀

آل الحمدان

نفرد لهم هذا الفصل بالنظر الى خطورة شأنهم في تاريخ الجبل . فهم المؤسسون وهم الحكام . وهم اليوم آثار مبعثرة اتخذت من ابنائها الباقين هيا كل لا تحمل روحهم ، لقد ذهبت ريحهم . تلك عاقبة البغي . نخر سوس الظلم دوحتهم . وكانت دوحة آل الاطرش تنمو بجانبها اثيثة مستأشبة وارفة الظلال .

قلنا فيما تقدم (الحمدانين) فهل نعني بذلك انهم احفاد بني حمدان الملوك الذين استولوا على حلب في

القرن العاشر للميلاد واولهم سيف الدولة ممدوح (المتنبي) وذائد الروم عن الشام؟ وانهم بالطبع غير عائلة حمدان الموجودة اليوم في لبنان ٠

بعد ان أسقط في يد الحمدانيين وخمل ذكرهم على اثر الاستيلاء الفاطمي ، عاد الحاكم الخليفة الفاطمي فاصطفاهم وقربهم وخلع عامله على حلب ليعين مكانه عزيز الملك الحمداني ٠ ولا يذكر التاريخ ما آل اليه امرهم بعد سقوطهم ولكنه يذكر لنا تقريبهم الى الحاكم ووجود احدهم ابي عبد الله بن ناصر الدولة قائداً عند الفاطميين في الثلث الاول من القرن الحادي عشر للميلاد ويبدو لنا انهم لبوا دعوة دعاة الحاكم مع من لباها في حلب والشام ؛ وانتقلوا من حلب على اثر تقلص ظل الفاطميين عنها لتعرضهم للاضطهاد ؛ وقطنوا لبنان الى ان نكبتهم القيسية اليمنية فظهر عليهم امراء تنوخ وهم من مذهب واحد فانتحوا حوران ٠

لا يكذبنا التاريخ بل يساعدنا غموضه على تصديق

الرواة والمخطوطات . هـذا واننا وان توفرت لنا الادلة على صحة أنساب سائر عشائر الجبل، لن نعالجها في هذا الكتاب اتقاء التطويل والاملال .

حروبه

أظهر ما في تاريخ الجبل حروبه كما اشرنا، ألا إن ارضه لمجبولة بالدم المهراق . وان حروب البقاء — حروب الدفاع عن الحياة — لأشدّ الحروب هولاً واعظمها فتكاً . هي حروب الدروز في موقفهم وبحر الدماء وراءهم والعدو أمامهم .. هي وثبات اللبوة دون اشبالها ، والاشبال دون عرائنها . هي انفجارات الضغط وثورات المستضام يُجرح في عزته ويُنال من إبائه . هي ام مهاجرة ترضع طفلها الاعجف المهزول ، وبعل يستقطر له ولها الصخر ويستنبت الوعر — من جانب . وبدوي مستنفر جائع كالذئب يسروح

شواً ـــــ من جانب • وجند من خاف يتقاضى البعلَ سلاحه وقوت عياله : اين المهرب • لقد احفزه اليأس فتهالك • فأعولت الزوج ، فرفع الطفل ، الممسك عن الرضاع ؛ عينيه لتنقلا الى حافظته صوراً مألوفة لحروب مقبلة • وعاد الى رضاع ثديٍ يدرّ له لبناً اجمده الذعر والتنمر ليشدمنه المفاصل والاوصال ، والساعدالمفتول • وماذا ! إنها حروب الليل والنهار و المفاجأة و الغدر . فكيف ينام على فراش وثير • وكيف يسكن الى الظلام ويأنس • وكيف يعنى بترتيب منزله بل ببنائه • وكيف يطيق فراق الحبيبة التاريخية ــــ بندقيته ذات الفتيل أو صاحبه الوفيّ الهنديّ الصقيل ، •• فما هي الا صيحة أو يكون الاثاث والزوج والولد جميعاً على ظهر دابته • ويكون العراك • والولد الصامت المترعرع يجهز على آخر رعدة في القلب ، ويستودع الليل آخر وديعة للخوف .

اذا كانت صلابة الجسم تورث فالشجاعة تربى •

*لم تزل جنة البادرة ... صفحة الزهر حوادث ادرب الشمال ... ١٩٥٧ ... عانوني

وبهذه الوراثة والتربية تمتع بنو معروف في بلدهم الجديد . وكان الفوز يقود الى الفوز بقوة استمراره المعنوية .

أضف الى ذلك ماللاقليم من التأثير . فهو عامل من العوامل التي تكون الفرد والجماعة وكثيراً ما تكون الجماعة صورة حية للاقليم . والدروز من الجماعات التي كونها الاقليم هذا وانهم لم يكتسبوا اخلاقهم في جبل حوران ، فقد كان لهم مثل هذه الاخلاق في جبل لبنان فاستعارت من جبلهم الجديد نشوفته واقفاره. وضمهم ماضمه من منبسط الارض . واظمأهم الى الدم ظمؤه الى الماء .

يحدثك الكتاب المتفننون ايها القارئ عن ذلك الفتى الذي هبّ للإثار من قاتل ابيه لان امه حدثته عن قتله اياه وحرضته على الانتقام . اما انا فاحدثك عن فتى ولد معه الانتقام الذي رافقه جنيناً قلقاً في رحم امه اللاجئة في الهروب من مكان الى مكان مع الزوج المقاتل . ورافقه طفلاً منغص الرضاع تألف اذناه صوت

البارود وعيناه لون الدماء • وأحفزه فتى ينع الحمى ويخوض الصفوف وعلى فمه ابتسامة المستشهدين في سبيل عقيدة مقدسة .

لسنا كرُواة قصص عنترة او ابي ليلى المهلهل او ابي زيد الهلالي . فما انا براوٍ لك الاحديث حرب من حروبهم كما رويت حديث اسرة من اسرهم فحسب ، وهي حرب اللجاه ، ضاربين صفحاً عن سائر حروبهم مع (باشليق) الشام وقبائل البدو الكثيرة •

❀❀❀

حرب اللجاه

يقع (اللجاه) غربي جبل الدروز الى الشمال . وهو ارض صخرية ذات وعور ، بل تيه لا يعود منه والجه الا اذا كان من ألآفه المخاريق • صخوره شاهقة ضخمة لا تبدي للعين وراءها بادية عمران او جانباً حيا من الارض يستهدي به التائه فيه • فاذا لم يقيض له الله من يخرجه من ذلك الوعر الصامت المنحبس

الانفاس ، هلك ظمأ وسغباً عند صخرة من صخوره .

تقول أساطير التوراة ان ابرهيم طلق هاجر ، فحملت اسماعيل — وربما قربة ماء ايضاً — وسكنت واياه ونسله البراري والفلوات . لاصدقن ذلك أو مايرمز اليه . والا فاية قوة في هؤلاء البدو غير الوراثة تمكنهم من سكنى وعور وقفار كالصفا واللجاه ؟ هذا وان اللجاه لايخلو من قرى بنتها فيه قبيلة (السلوط) حيث توجد المراعي في بعض جنباته .

في هذا اللجاه تحصن الدروز يوم هاجمهم ابراهيم باشا المصري ورد عنهم خاسراً بعد أن دار بينه وبينهم قتال تسعة شهور متوالية فقد في خلالها خلقاً عظيماً معظمهم من المصريين [١] والحوادث لو لم يؤيدها التاريخ تكاد لاتصدق .

---

[١] نلفت النظر الى نكتة بهذا الصدد . وهي ان كلمة درزي منذ ذلك الحين تلقي في نفوسهم النفرة والجزع حتى انهم كثيراً مايستعملونها في معرض الشتيمة حتى يومنا هذا .

وتفصيل ذلك ان ابراهيم باشا بعد ان فتح البلاد الشامية ودوخ جيوش السلطان محمود حتى بوغاز بيلان سنة ١٢٤٧ للهجرة طلب السلاح والضرائب من دروز حوران وتجنيدهم • وان ابراهيم باشا كما جاء في (خطط الشام) للاستاذ كرد علي، اخطأ في تطبيق قانون التجنيد فى الشام على نحو مافعل ابوه في مصر. لان مسألة التجنيد قللت من انصاره • وهذه الروح العسكرية كانت قد ضعفت في الامة بعد أن حكمها المماليك البحرية والشراكسة والاتراك قروناً طويلة بالعنف والقهر [٢]

وكان نائب ابراهيم باشا على دمشق محمد شريف باشا فاستدعى زعيم الجبل الشيخ يحيى الحمدان وسائر الاعيان اليه ليكلمهم في ذلك • وإنهم لبين يديه

---

[٢] وفي « دائرة المعارف الاسلامية » : ان تجنيد الشعب في الشام أدى الى هجرة عدد عظيم من اهلها الى آسيا الصغرى والعراق .

يسترحمونه لاعنائهم اذا هو يتقدم الى الشيخ يحيى
ويصفعه لالحاحه والحافه في طلب ابدال التجنيد بالمال .
ذلك سنة ١٢٥٢هـ . فعادوا الى الجبل حانقين ، وبموافقة
الرئيس الروحاني الشيخ ابراهيم الهجري شهروا عصيانهم
وعولوا على اللجوء الى اللجاه لم يثنهم بطش الفاتح
العظيم وانتصاراته عن الذب عن كرامتهم والتهالك
دون الهوان . ولم يكن عدد مقاتلتهم يربو على الالف
وعدد احلافهم عرب السلوط (في اللجاه) على مئتين .
وهؤلاء لم يهجموا الالما كانوا يرون انتصار الدروز
ليفوزوا بالاسلاب والغنائم [١] . وان تلك الحرب لمثل
الجهاد . فانه لما دخل حسين بو عساف شيخ نجران
فارساً شاكي السلاح على الرئيس الروحاني الهجري
ليطلب دعاءه وهو في المجلس يتعبد (والشيخ حسين

---

[١] وقد روى لنا كثيرون ان هذا كان شأن قبائل البادية
مع الشريف فيصل (ملك العراق اليوم) اثناء الحرب العامة
بينما متطوعة العرب المتحضرة يستبسلون في الهجوم على الاتراك

اول من اوقد نار الفتنة) قال له الشيخ الهجري : « فزت بها يابو عساف . دخلت الجنة بسيفك ورمحك » ...

فلما بلغ نبأ العصيان محمد علي الكبير وابنه ابراهيم باشا ارسلا القائد علي آغا البصيلي كبير طائفة الهوارة والصعايدة ، ومعه عبد القادر آغا ابو جيب (من دمشق) على رأس ٤٠٠ فارس متهدداً متوعداً وابى قبول استرحام الدروز في ابقاء السلاح معهم طالباً منهم ١٨٠ نفراً للجندية كما جند ابراهيم باشا ١٢٠٠ من دروز لبنان وارسلهم الى عكا . فهاجموه في الثعله فلم ينج الا هو و ١٥ عشر فارساً تعقبهم ابراهيم الاطرش (عم اسماعيل جد العائلة) وشبلي آغا العريان وفندي عامر حتى قتل ابراهيم بعد تشتيت الهاربين وقتل عبد القادر آغا ابو جيب وهو متسلم حوران وجبل الدروز .

فاحتدم ابراهيم باشا وارسل احد قادة جيشه محمد باشا يقود ١٢ الفاً من الجنود المصريين وكثيراً من الشاميين الفتك والتدمير . فعسكر في بصر الحريري

المحاذية للجاه • فمشى الدروز لقتاله فقابلهم الجيش
بالمدافع ، ولم يكن الدروز قد رأوا المصريين بلونهم
وهيأتهم ولا المدافع من قبل • فتصارخوا وتدفعوا
وشدّوا على الجند ثم تراجعوا بعد قتلهم مئة وخسارتهم
(١٤) • فانتقل محمد باشا الى قرى الدروز الخلاة يجمع
المواشي والانعام وينهب البيوت • واعاد الكرة على
الدروز النازلين فى قرى صميد وعاهره والخرساودامه
على حدود اللجاه • وبعد المعركة التي حال دون
استمرارها الظلام انتقل الدروز الى داخل اللجاةفلحق
بهم محمد باشا في اليوم الثاني وهم ينهزمون حتى بلغوا
العيال • فتصايح النساء وتصارخ الاولاد • فتواثب
الدروز محفزين وشدوا على الصفوف فلا صفوف •
وظل محمد باشا يجول بين جنوده محرضاً حتى سقط عن
جواده قتيلاً • فولوا لا يلوون على شيء والدروز على
اثرهم يجدون حتى هلك نصف الجيش • وفقد الدروز
١٤ قتيلا فقط •

انتهى نبأ الانكسار الى محمد شريف باشا والي الديار الشامية فخرج بنفسه يقود جيشاً انجده محمدعلي باشا من مصر بنحو من ٢٤ الفاً [١] من المصريين (بعد ان استصدرت الفتاوي باستباحة الدروز) وكان يقود المصريين احمد باشا المصري للأخذ بثار اخيه . فجزع الدروز . ولكن الزعيم الكبير يحيى الحمدان والرئيس الروحي ابراهيم الهجري والبطل شبلي آغا العريان شددوا العزائم وهجموا مع الشروق فردتهم المدافع والبنادق حتى بلغوا العيال كما حدث في المعركة السابقة فتصايح النساء والاولاد . فارتد الدروز وانقضوا على اعدائهم كالبزاة واعادوهم على اعقابهم الى المعسكر . وهناك لم تغنهم مدافعهم الكثيرة فانهم بعد ساعة مقاومة ولوا مدبرين لا يلوون على شيء . هرب شريف باشا . وعاد احمد باشا جريحاً الى مصر حيث مات على الاثر.

[١] كما ورد في كتاب الشيخ الهجري وكتبه من المخطوطات التي عثرنا عليها في الجبل . ونظن ان في بعض الارقام نظراً .

وكان قد انفرد فى اللجاه ٣٠٠ جندي مصري عاد الدروز فذبحوهم وبالنظر الى ذعر المصريين لم يقتلوا من الدروز غير بضعة افراد • وكان شبلي آغا العريان قد قطع الطريق على الجنود الراجعة في الغوطة •

لم يجسر شريف باشا بعد ذلك على مهاجمة الدروز بل اكتفى بتدمير المناهل حول اللجاه فكادت تكون هذه الضربة القاضية على الدروز ؛ فان الماء في حصارهم ذاك كان لهم كل شيء ، وكان الهجوم على المناهل اشد الهجوم هولاً لانه هجوم العطاش على بلة تمسك الرمق الاخير • وكم لهم فيه ابلاء ونصر مبين • هذا وقد علم القارئ ندورة الماء في اللجاه •

واذ كان الدروز في ذلك النضال اذا الانباء تنقل اليهم غدر (ابن سمير) شيخ عشيرة (ولد علي) من عرب (عنزه) وهجومه على الجبل من جهته الشرقية الخالية من المدافعين ونزوله في (صبحة وصبحية) وهما خربتان قرب ذيبين • فساروا اليه ليلاً واجهزوا

على من سدت في وجوههم ابواب الفرار ولم يبقوا الا على النساء اللواتي لم يمسوهن بسوء شيمة بني معروف في الحفاظ على العرض . وعادوا .

ثم ان ابراهيم باشا زحف بعشرين الفاً من الارناؤوط والترك والاكراد وغيرهم من جهة حلب . ولم ينو دخول اللجاه لانه انس ذعر جنوده من شجاعة الدروز بل نوى محاصرته وتدمير المناهل حوله لاهلاك الذين فيه عطشاً ، فدمر مناهل وادي اللواء جميعها وسمم اكثرها [١] وكان يرمي الجثث فيها بعد كل معركة مثل منهلي لاهثه وام الزيتون . وبنو معروف يدافعونه عنها ويذودونه ويفوزون عليه في معظم المعارك ويفادون بكثير من رجالهم .

[١] لم يقبل الدكتور الفرنسي كلوت بك Clott من ابراهيم باشا بتسميم المناهل فاستشار ابراهيم باشا بعض الكيماويين والزمهم بصنع محلول السليماني والقاه في المياه واعلن للملأ ان الماء قد دخله السم حتى يتيسر له القبض على الثائرين ونجو اطفالهم ونساؤهم .

وكان في صباح احد الايام أن هجم عليه الدروز بقيادة البطل حسين درويش الذي كانوا يسمونه (سبع اللجاه) فشتتوا شمل جيشه اي شتات ومزقوه اي ممزق واستولوا على مدافعه وذخيرته .

على ان ابراهيم باشا لم يجزع فكان يلم شعث جنوده ويستقدم النجدات ثم ينهب قرى الدروز كالسويداء وبريكة والهيات ويقتل وينكل تنكيلاً . الان مايؤثر عنه ويخلد له الذكر الذي يتوارثه بنو معروف جيلاً فجيلاً هو محافظته على النساء . ويا ويل من تعرض لاحداهن . ذلك مزيج من الشرف الالباني والحفاظ العربي .

واهم مايؤثر عن تلك الحرب ذهاب شبلي آغا العريان وفرسانه الى بلاد راشيا وحاصبيا والشوف (لبنان)، واثارة بني معروف فيها على ابراهيم باشا . وهزمه للامير محمود الشهابي من قلعة حاصبيا . ومناصرة الشيخ ناصر الدين العماد الذي مات مقتولا، ورجوع

ابراهيم باشا لقتاله هناك وموافاة نجدة عكا بقيادة واليها.
وفي « خطط الشام » ان نصارى لبنان تجندوا مع العساكر المصرية وحضروا الوقائع التي حدثت بين المصريين والدروز في حوران ووادي التيم . وقد انتهى ذلك بانغلاب شبلي آغا ورجوعه بألف من المقاتلة الى اللجاه حيث كان ابراهيم باشا قد ترك الحاميات حوله .

اما القصد من اقدام شبلي آغا على هذا العمل فهو تخفيف الضغط عن الدروز المتضايقين في اللجاه من قلة الماء ، ومضايقة ابراهيم باشا في سورية . وهي سياسة منه كان لها النفع الجزيل .

فان ابراهيم باشا عاد الى اللجـاه ملولا وخابر بني معروف بالمصالحة ، فتمت على أن يؤدوا قسماً من سلاحهم ويساعدهم ابراهيم باشا بتعويض مالي ويعفيهم من التجنيد ثلاث سنوات . ولم يسلم شبلي آغا العريان الا (بعفو) خاص ونزل بعد شهر هو واولاد عمه الى دمشق حيث اكرم وفادتهم ابراهيم باشا .

سائر حروبه

لا يؤرخ الدروز في الجبل حروبهم بل يكتفون باضافة كلمة (سنة) الى القائد الذي حاربهم او المكان الذي حاربهم فيه. ويسمون الحرب « ذبحة » فيقولون « سنة سامي باشا » مثلا او « ذبحة إمسيكي » .

وسنذكر هذه الحروب باختصار مجتهدين في ضبط تاريخها نقلاً عن كتب التاريخ والمخطوطات المحفوظة في دور رجال الدين المدوّن فيها الوقائع في اوقاتها .. ولانهم بسرد قتالهم المتواصل مع البدو وغزواتهم .

١٢٦٩ هـ . سنة صاري عسكر للمّ الخراج من الجبل كان الفوز فيها لبني معروف .

١٢٧٣ هـ . سنة إمسيكي (خربة في اللجاه) مع الحوارنة فاز فيها الدروز .

١٢٩٦ هـ . سنة قرّاصه ــــ وهي عين ماء قرب نجران ــــ وكان القائد جميل باشا ؛ جاء على اثر خلاف الدويره ، بزعامة حمود نصر ، وبصير الحريري . فيها

استعمل نوع « المارتين » من البنادق لاول مرة وكان الفوز للدروز .

١٨٨٠ - ١٢٩٨ هـ . سنة الكرك واختلافها مع الثملة ذلك الاختلاف الذي انتهى بانتصار الدروز . وعدم تعرض الحملة لهم .

١٨٩٦ - ١٣١٤ هـ . سنة ادهم باشا وممدوح باشا وخصرف باشا في قرّاصة والسجن وام العلق . وكان الدروز قبل ذلك بثلاث سنوات اخرجوا شبلي الاطرش من قلعة المزرعة التي قاده اليها الجند مقيدا الى بطن بغل ، ثم لما حاصرهم الدروز سلبوه لتضايقهم عطشاً من الحصار ، فلما تهافتوا على نبع ماء قريب — بعد تسليمه — لم يتعرض الدروز لهم اشفاقاً .

في تلك السنة تم صلح حادثة الحراك (١٣١٣ هـ) ١٨٩٥ - التي من اجلها جردت الحملة ، ولكن تركيا غدرت بالدروز بعد ذلك فنفت شبلي الاطرش زعيم الجبل وابا طلال وهبة عامر ومئتين تقريباً معهم .

١٣١٥ هـ . سنـة عرمان بقيادة غالب بك ورضى بك لاربعة طوابير قتلهم الدروز عن بكرة ابيهم بالفؤوس والسيوف .

على أثر ذلك جردت حملة ٥٤ كتيبة بقيادة طاهر باشا ، فالتجأ الدروز الى اللجاه للحرب . ولكن الدولة صالحتهم وامنتهم ثم خرقت الامان ونفت الزعماء ليلحقوا باخوانهم السابقين .

وهاج الجبل على أثر ذلك وكان قد هرب بعض المنفيين منهم وهبة عامر ونسيب الاطرش وسلامة الاطرش واخذوا يثيرون الشعب طالبين عودة المنفيين فعادوا بعفو السلطان عبد الحميد وإنعامه سنة ١٣١٨ . فابتاعوا بالدراهم التي نالتهم من احسان الدولة سلاحاً في طريقهم ليقاتلوها به ، ثم حدثت حوادث دعت الى حملتي ١٣١٩ هـ . و ١٣٢١

١٣٢٤ هـ . سنة المعجل ، وهم عرب اعتدوا على الدروز فهاجمهم هؤلاء في الضمير من مرج غوطة دمشق

حيث قتلوا منهم اربع مئة وابقوا على النساء ولم يمسوهن بسوء .

١٣٢٨ هـ . سنة سامي باشا الفاروقي ، وهي معروفة لحداثة عهدها وقد وسمها سامي باشا بسمة الغدر الصريح ، وها صديقنا المطران نيقولاوس قاضي اسقف حوران للكاثوليك شاهد على ذلك الغدر وطالما حدثنا عنه . فان المطران كان الوسيط حامل العفو الى الزعماء ؛ فلما سلموا آمنين شنق الباشا منهم ذوقان الاطرش (والد سلطان باشا) ؛ ومزيد عامر . ومحمد القلعاني . وهزاع الحلبي . وحمد المغوّش . ويحيي عامر . ونفى كثيرين وجند كثيرين . وعفى عن بعض المجرمين بسلطان الأصفر الرنان . وجرّم بعض الابرياء كيحيي عامر وهزّاع الحلبي [١] .

[١] لما سئل هزاع قبل الصلب عما يوصي به قال : « ان حساباتي عند ابني . ولكني اوصي الدولة بالحلبية لانهم عبيد مخلصون لها متعلقون بالعرش العثماني » .

ثم ارادوا ان يضعوا عصابة على عينيه فقال لهم : « لا حاجة -

لم يحارب الدروز سامي باشا بل لاقاه زعماؤهم حتى درعا برئاسة الزعيم الكبير يحيي الاطرش . ولكنه اراد الانتقام منهم لهجومهم على بصرى ومحاصرة قلعتها على اثر اختلاف بين نواطير القريا وبصرى .

ولم يلبث الدروز أن عادوا الى العصيان بعد تلك السنة . ونحن نجتنب التطويل مكتفين بالاشارة الى دفاع الدروز عن استقلالهم منذ حلولهم في الجبل .

❀❀❀

ثورة العامة

ذكرنا عند الكلام عن الهجرة شيئاً عن العامة ووعدنا بالتفصيل . قلنا ان الفلاحين كانوا يرحلون من قراهم ومساكنهم تبعاً لارادة المشايخ بدون تعويض . كان الفلاحون من عشاير الدروز بمنزلة العبيد من

ـ لذلك » ثم قال : « اللهمَّ اني قادم عليك فاقبضني يا كريم وعاماني برحمتك » .

ـ وكان بعض فضلاء دمشق ـ ممن حدثنا بذلك ـ فخرجوا باكين لعلمهم ببراءته ،

الشعب الاميركي قبل الحرب الاهليـة لتحريره .
يحرثون ويبنون ويقتنون ثم يرحلون متى شاء الزعيم
ذلك كان الاقطاع بمعناه التام . وانما يختلفون عن العبيد
في انهم لا يباعون ويشترون .

وظل ذلك شأنهم حتى ضعف شأن الزعامة واشتد
أزر العامة بكثرة عددها ووفرة مقتنياتها فهبت سنة
١٣٠٨ ه هبتها ، وثارت ثورتها ؛ يساعدها على نيل
حقوقها ورفع صوتها عالياً الزعيم الكبير شبلي الاطرش
(يوم كانت الزعامة بيد اخيه ابراهيم باشا الاطرش)
وزعيم آل عامر ابوطلال وهبة . ولكن شبلي وابراهيم
وسائر الطرشان توجهوا اجتناباً للشر وحقناً للدماء الى
مكان قريب من السويداء اسمه (المزرعة) . وكان من
الزعماء كثيرون اجتنبوا العامة ماعدا وهبةعامر وظاهر
كيوان وحمد المغوش وحامد العبدالله الذين لبثوا في
قراهم . اما شبلي نصير العامة فانه اضطر مجاراةً لعائلته الى
الهروب معها واخذ الثوار يستولون على القرى قريةقرية .

فسارع ابراهيم باشا الاطرش الى دمشق وعاد بنجدة الحكومة وحملتها التي بنت القلعة في السويداء (الثكنة العسكرية الباقية الى اليوم) وخضدت شوكة العامة بعد انالتها حق المسكن وامتلاك الارض. فقد كان للزعيم في القرية ربعها فغدا له نصف الربع وهذا لا يشمل الجميع اطلاقاً فان من الزعماء من لا يزال له الربع كشبلي الاطرش نفسه.

❀❀❀

الحرب العامة

لم يخضع جبل الدروز لنظامات الحرب التركية فهو لم يؤد الضرائب ولا الجنود. في ذلك العهد المظلم عهد جمال باشا وفتكه بكل مخالف وانزاله البلاد الشامية على ارادته المطلقة؛ كان زعماء الجبل يروحون ويغدون عزيزي الجانب نافذي الكلمة بالرغم من مخالفتهم.

ولا هو أصيب بما أصيب به سائر البلاد الشامية. فبينا لبنان المرهق المظلوم يقضي الايام طاوياً وبطون

بنيه لاصقة بالظهور ، وجيوبهم كبيوتهم تمر بها ريح الجنوب فتصفر ، كان هو مكتظاً متخماً تختنق دنانيره من شدة زحامها في صناديقه لو لم يأتها فرج الانفاق في اسواق دمشق وعلى مناسف الكرم والجود .

وغير ناس لبنان فضل جبل الدروز في هذه الحرب بايوائه اللاجئين واطعامه الجائعين الذين هاجروا اليه ألوفاً حتى كاد يربو المهاجرون على السكان . اما غير لبنان من الاصقاع الشامية فلم يصبه ما اصاب لبنان ولكن المضطهدين السياسيين والمطلوبين للجندية وجدوا في الجبل ملجأ اميناً وصلة مع ثوار العرب والحلفاء .

ان مضافات الجبل كالفنادق المجانية للاكل والنوم . فكان المهاجرون الجياع من لبنان وغيره يفدون عليها فتصبح كالثكنات التي تغص بالمسوقين للجندية . وعادة الضيافة تقضي على صاحب المضافة بان يعولهم وان هذه المضافات كثيرة في كل قرية فهي بمثابة

الردهات في المدن . وهل يخلو منزل وجيه من ردهة استقبال ؟ .

لا ننسَ ان بني معروف لم يميزوا في ضيافتهم الدرزي عن المسيحي او المسلم عن اليهودي ، بل انهم كانوا يحسنون ضيافة الجميع على السواء . وان الحرب كانت مورد ثروتهم الحالية بالنظر الى ما بلغته اسعار الحنطة من الصعود .

❀❀❀

الانتداب

انتهت الحرب العامة . ووقفت السياسة موقف التردد في سورية . فوقف الدروز كذلك مترددين .

وكان الاحتلال الانكليزي ، وكان الاحتلال الفرنسي . وكان الاستقلال العربي . وكان الاستفتاء الاميركي . كل ذلك في آن واحد . فلا غرو اذا رأينا تعدد الآراء في الجبل والتفاف بعضهم حول (فيصل) وبعضهم حول (غورو) وبعضهم حول (كليتن

وكورنوالس) . فالدروز في تلك العواصف مضطرون الى الاستناد الى شيء . وكان موقف الفرنسيين الثابت ازاء سورية وتردد الانكليز وتكتمهم سبباً في تحويل الدروز وجوههم نحو الانتداب الفرنسي ومد يدهم لمصافحته قبل دخوله دمشق . وكان موقف الدروز بعد ذلك باعثاً على رضى دولة الانتداب ومسارعتها الى الموافقة على برنامج استقلالهم .

فانتقلوا بذلك من استقلال مشوب ملطخ بالدماء مطعون الجوانب ، الى استقلال معترف به مصون ، المدافع عنه غيرهم والقائم به سواهم وهم آمنون .

❀❀❀

الزعامة

قلنا ان آل الاطرش انتزعوا السلطة من آل الحمدان فاصبحوا اذن مكانهم عائلة الزعامة .

في الجبل عشائر كثيرة قوية أيدة لها في منطقتها نفوذ مستقل عن سلطة عائلة الزعامة الطرشانية .

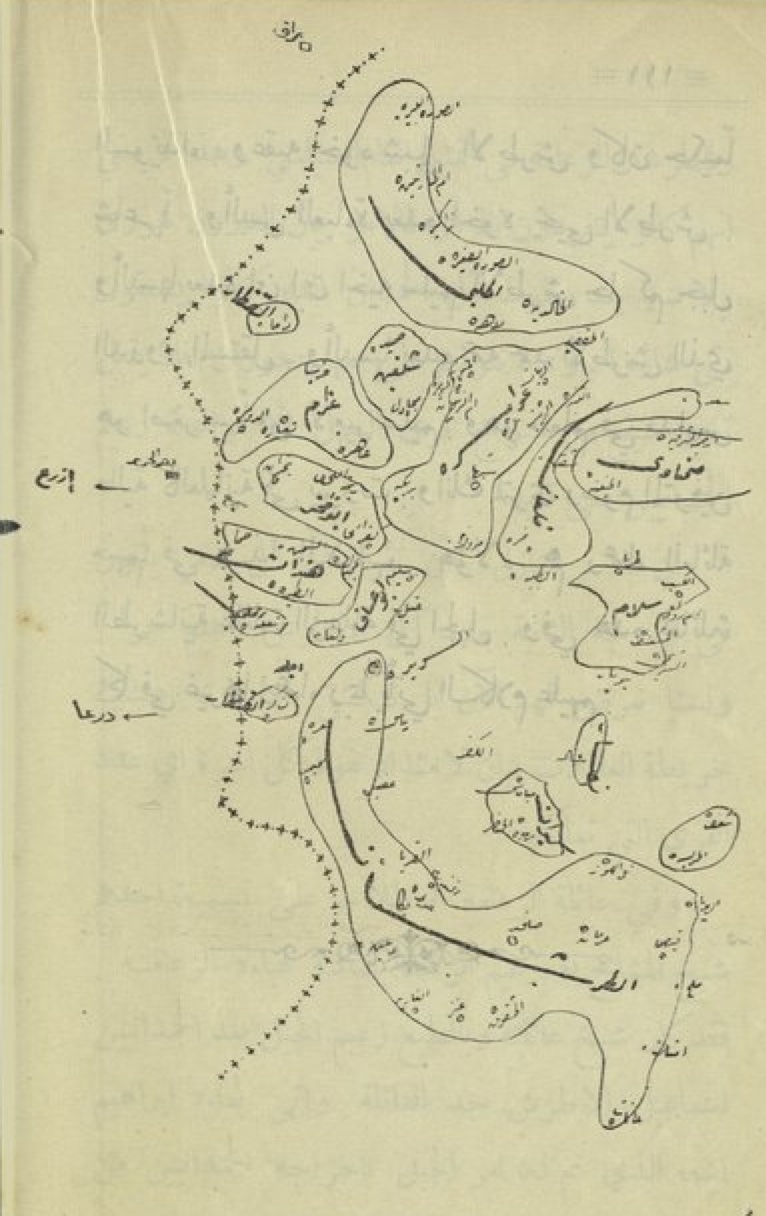
وللطرشان الزعامة في التمثيل العام السياسي. وهذا لا يعني انهم كانوا يتفردون بالرأى فالامر بين الدروز شورى ولا سيما بعد سقوط آل الحمدان الذين كانوا يشنقون متى شاؤوا ، ويمتد نفوذهم على سهل حوران فلا يقبل تعيين شيخ من شيوخ قرى السهل الا بموافقة زعيم الحمدانيين على تعيينه .

ان للاسر منازل كأن تقول ان آل عامر يأتون في الدرجة الثانية بعد آل الاطرش وهلم جرا . ولسنا نعرض لهم الآن بل نكتفي بالاشارة . وفي خريطة العائلات بيان لامتداد نفوذ كل اسرة اي عدد القرى التي تملكها .

وفي عائلة الزعامة اصطلاح على تسمية احدهم شيخ المشايخ او زعيم الزعماء بالباسه عباءة الزعامة . فقد كان شيخ عائلته وبالطبع زعيم الجبل بعد الحمدانيين اسماعيل الاطرش جد العائلة . واتى بعده ابراهيم ابنه الذي تم له امر الجبل باخراجه الحمدانيين من

السويداء . وعقبه اخوه شبلي الاطرش وكان حكيماً شاعراً . وألبس العباءة بعده اخوه يحيى الاطرش . وألبسها بعده ابن ابن اخيه سليم الاطرش حاكم جبل الدروز المستقل . وألبسها بعده عمه حمد الاطرش الذي هو اصغر سناً من الامير سليم . وهو متعلم في مدارس عالية كالعلمانية في بيروت . وانك لترى رسوم المتوفين منهم في هذا الكتاب . هؤلاء هم زعماء العائلة الطرشانية عائلة الزعامة في الجبل . وفي هذه العائلة كما في غيرها زعماء ربما يأتي الكلام عليهم .

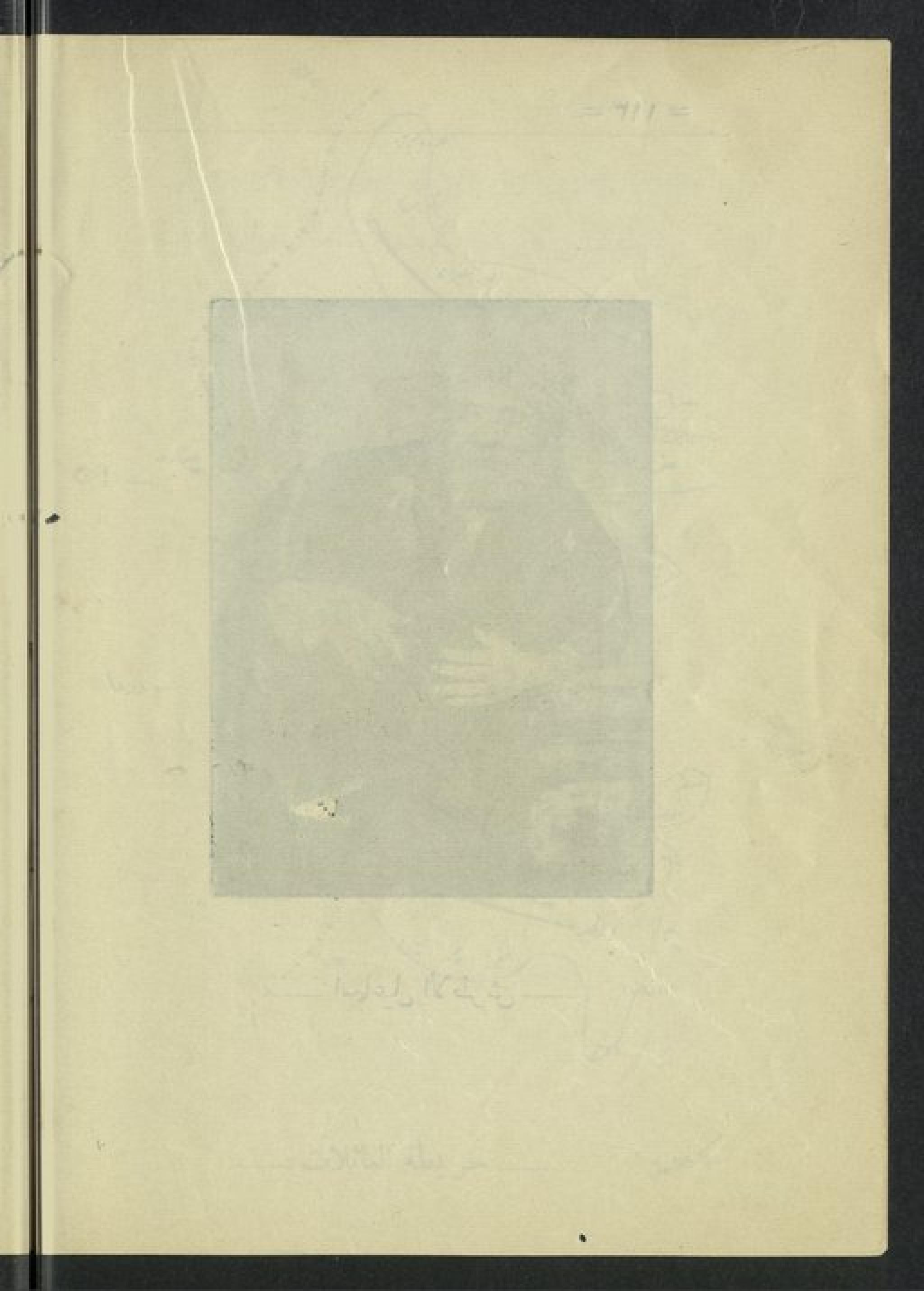




خريطة العائلات



— اسماعيل الاطرش —





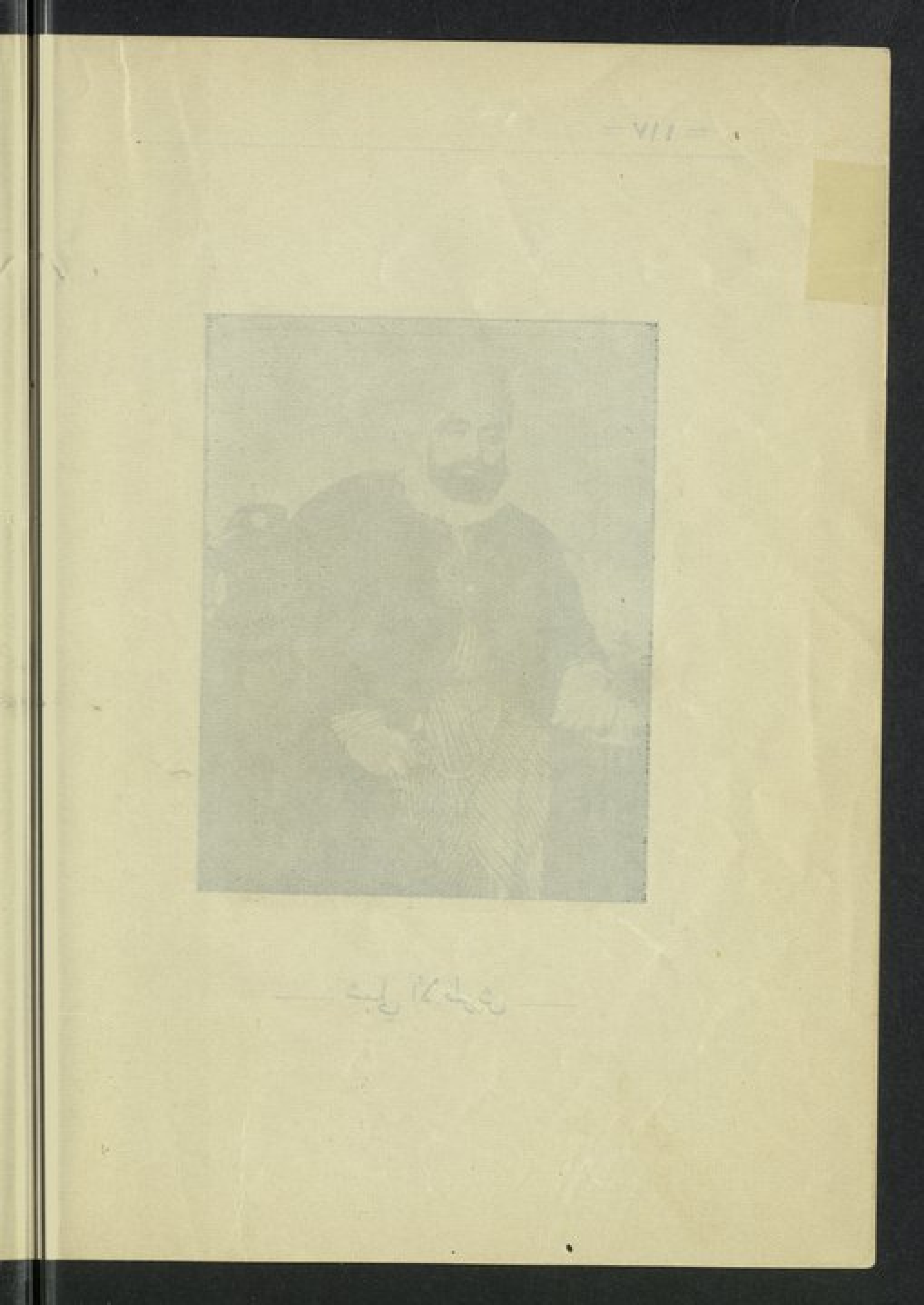
— ابراهيم الاطرش —



ذكاء الملك



— شبلي الاطرش —





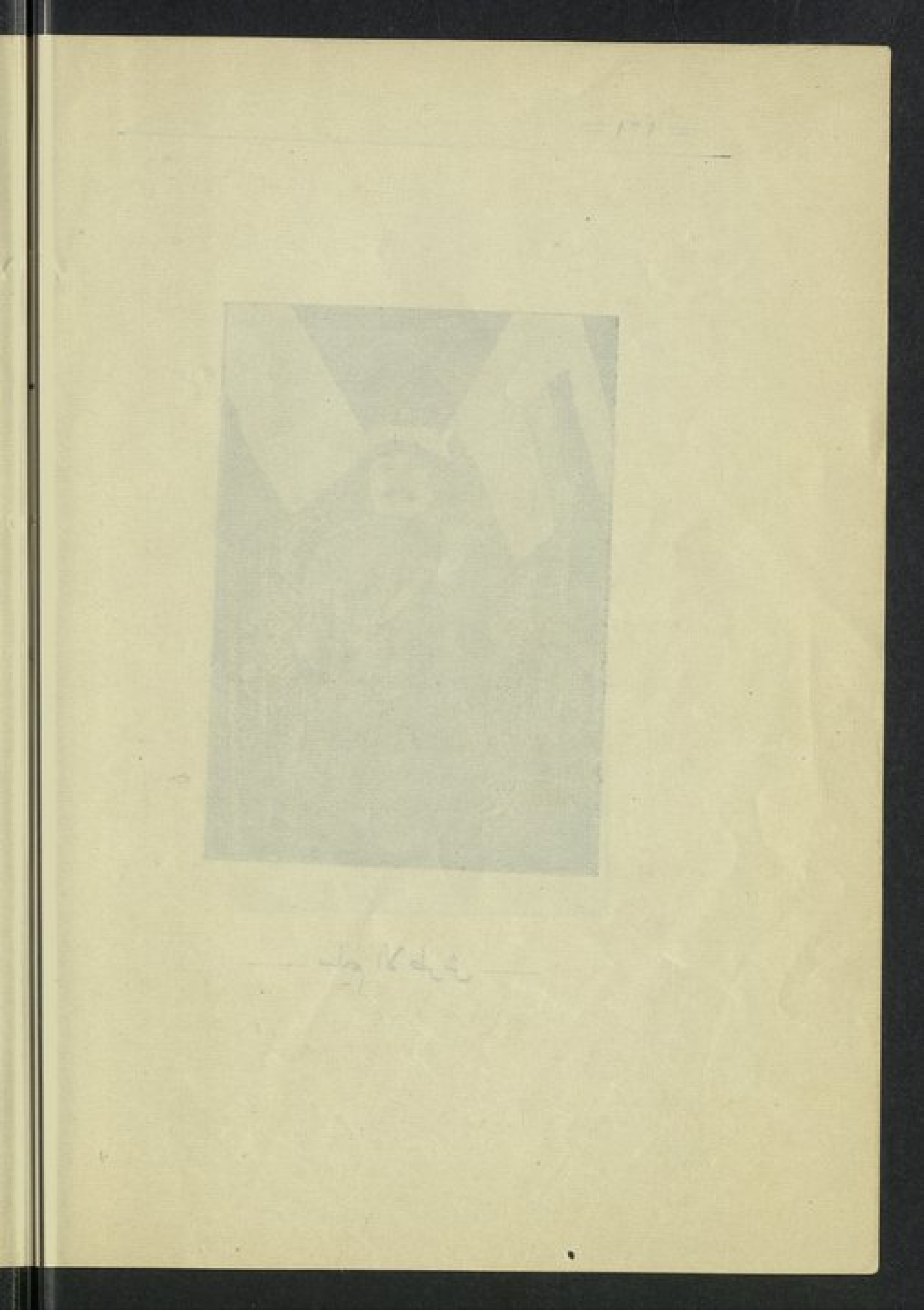
— يحيي الاطرش —



رشيد لا ريجز



سليم الاطرش



ان الزعامة في الجبل عبءٌ ثقيل جداً لا تقوى على حمله الا الكواهل المشدودة . فهي مشكى الضيم ، وملجأ الظليم ، وقِرى الضيفان وحَكم الخصوم . اما اليوم فقد شاطرتها الحكومة النظامية بعضه .

على ان هنالك رئاسة ــــ لا نقول زعامة ــــ ذات نفوذ عظيم عند الشعب ، هي الرئاسة الدينية التي ظلّ يحترمها الزعماء وكثيراً ما كانوا يضعون توقيعها قبل توقيعهم العرائض العمومية مثلاً . وقوّة هذه الرئاسة تتوقف على صاحبها . فاشدّ الرؤساء الروحيين نفوذاً كان الشيخ ابراهيم الهجري ، وقد انتهت اليوم الى احد احفاده الشيخ احمد الهجري .

قلنا ان نفوذ الرئاسة الروحية بشخصية صاحبها . فهنالك الشيخ حسين طريبه المتوفى صاحب النفوذ العظيم في زمنه وما كان شيخ عقل . وكان يتفرّد شيخ العقل بالتوقيع وحده عن رؤساء الدين فصار منذ زمن شبلي يتلوه في التوقيع بعض زملائه الاتقياء . الا

انه هو المقدم فيهم كما ان زعيم الجبل يوقع بعده زعماء معدودون .

وهؤلاء الرؤساء الروحانيون كانوا ولا يزالون الساعد الأيمن للزعماء وباسطي نفوذهم . والتاريخ لم يحدثنا عن زمن لم تتفق مصلحة هاتين الزعامتين فيه كلا ولا هو يحدثنا عن خلود احدهما . فها هو ظلهما يتقلص شيئاً فشيئاً على جري سنة الاعمار لكل شيء .

ولا يفوتن اللبيب ان الزعامة اشد ما تكون في الاوقات الحرجة التي يحتاج فيها الشعب الى من يجمع شمله وينظم صفوفه ويقوده الى الخلاص . فها اكثر الامم ديمقراطية تعزز القيادة في سني الحروب . وها برلماناتها تخفت اصواتها في معمعانها ، وتصمت احزابها الحرة والمعارضة . وها رجل واحد يحمل بيده مقدرات امة بأجمعها . ثم انك ترى في صفوف المحاربين الطائعين المستسلمين اشدهم تمرداً في السلم وخروجاً على الاستئثار في ايام الأمن .

لقد كانت الحروب في الجبل كما هي في غيره السبب فى اشتداد ساعد الزعامة وانضواء القوم تحت لوائها طلباً للسلامة بالتماسك ودرءاً للاخطار بالتعاون ، فترى العشيرة على عزّتها وشموخها تنضم الى جارتها وتقبل قيادتها وزعامتها إذ لابد من رأس واحد. ولا سبيل الى وجود زعامتين رئيسيتين كما انه ليس ثمت فى الحروب غير قيادة عامة واحدة .

ثم لاأعلم أهو فساد مابين الزعماء وما في انفسهم الذي آل الى ضعف شأنهم ام هي قلة الحاجة اليهم مع حكومة النظام التي فتحت باب الاستغناء عنهم ؟

ولاأعلم أهو قرَم رجال الدين الى الدنيا وتهالك بعضهم عليها وجعلهم الدين تراثا ـــ اهو ذاك الذي افسد عليهم قلوب الناس واضعف الثقة بهم . ام هو عصر الكفر وتبدل العقائد قد حال بينهم وقلوب الناس ؟

ولكنني اعرف شيئاً هو ان فى الجبل تبدلاً اجتماعياً ناجماً عن التبدل السياسي . ونمواً فكرياً من شانه ككل

نمو التجدد باطراح القديم البالي العفن • إلا ان مظاهرهما اكثر من حقيقتهما لاسباب ، والتصنع غالب على الطبع لاسباب ايضاً ، واذا كنت ايها القارئ لا تنكر ان ثورة باريس ذهبت بكثير من الارستقراطيين الأبرياء ، وتوافقني على ان نشوء الاجناس أفضى بها الى مقربة من الكمال ، وعلمت ان النشوء لا يكون بهذه السرعة في جبل لم تتوفر فيه اسباب النهوض ، ادركت معي ان هنالك زعماء كثيرين ورجال دين يستحقون الاجلال والاكرام • وادركت طرفاً من تلك الفوضى الاجتماعية — لا السياسية — الرائنة على جبل الدروز •••

✿✿✿

لقد عزمنا على طبع كتاب عن عشائر الجبل يأتي الكلام فيه عليها مفصلاً مع رسوم زعمائها ؛ ولكننا ننوه هنا بفضل بعض الزعماء وشيوخ القرى الذين ساعدوا على تشييد اركان الجبل وحكومته •

ونذكر اسماءهم دون ترتيب :

نسيب بك الأطرش
عبدالغفار باشا »
متعب بك »
سلطان باشا »
سلامه بك النجم
طلال باشا عامر
فضل الله باشا هنيدي
نجم بك النجم
نجم باشا الحلبي
عبدالمجيد باشا الحلبي
نجيب بك عامر
حمد » »
حسين » هنيدي
شبلي » الحلبي
قفطان » عزام
خليل » أبو فخر
سليمان » نصار
عجاج » نصر
سعيد » ابو عساف
حمد » عزام
عبدالله بك الشعراني
داود » ابو عساف

نسيب بك نصار
حمود » نصر
محمد » المغوش
حسين » زهر الدين
حمزه » الدرويش
جاد الله » سلام
مزيد » الصحناوي
سلمان » القلعاني
سليم » المغوش
مسعود » غانم
اسعد » مرشد
سعيد » ناصيف
خليل » كيوان
مزيد » شلغين
عمار » الحناوي
هلال » درويش
فرحان » ابو راس
فضل الله » ابو مغضب
عقله » القطامي
ضاهر وشبيب بك القنطار
محمد بك ابو عسلي
حمود » جربوع

الباب الثاني

— ١ —

الحكم العشائري

يوجد الحكم العشائري حيث تستدعي الحاجة وجوده في بلاد خلت من الحكم النظامي كجبل حوران . ويظل هذا الحكم حسناً مقبولاً الى ان يبسط النظام افياءه عليه ويعله الناس لوجود نظام خير منه .

ويبدو لي ان بينه وبين السنن الدينية تشابهاً من حيث سد الفراغ الاجتماعي وثلماته . فلطالما كان الدين الضابط الاخلاقي والاجتماعي ، واذا توسعنا نقول العنصري والصحي ،ولا سيما في الشعوب المنحطة حتى ارتقت وتمدنت فرجع الى حدوده الروحية . خذ لك مثالاً على ذلك العرب في الجاهلية وقد جاءهم

الاسلام مهذباً . ثم انظر كيف حمل العلم والتمدن بعد ذلك جانباً عظيماً من تبعة الدين واثقاله لضبط الشعوب .

هكذا قل عن نظام العشائر فانه حاضن الاقوام في طفولتها او بداوتها ، وشادّ أواصرها والساهر على حقوق افرادها ربأ بالشمل ان يتفرق ، وبالحفاظ ان يخرق . وهو ككل شيء يصبح مملولاً مكروهاً متى وجد ما هو افضل منه . لانه يصبح ناقصاً بعد كماله النسبي وفاسداً بعد صلاحه القياسي .

وله حسنات ويا لها من حسنات . وهو والد القانون الأبرّ ، وسلفه الفطري النزيه الذي تنزل على احكامه القلوب راضية قانعة . هو الذي ربى بنيه حتى ترعرعوا ودخلوا مدرسة النظام المدني . فكان شأنه شأن ذلك الريفي الساذج الذي تعلم بنوه وتفقهوا فتنكروا له وتنكر لهم بعد ان كانوا طائعين له مستسلمين الى احكامه .

ينتهي عمل النظام العشائري عندما يبتدئ النظام المدني . وهذا الذي كان في جبل الدروز . على ان للاول ابناء بررة نشبههم بحزب المحافظين في المجالس النيابية .. فهم لا يستسهلون تركه والصدوف عنه ، ولا يستعذبون الورد من غير مائه . ومن الخرق أن يحاول تحويلهم فجأة عن مذهبهم فيه . لان في النفوس ميلاً الى القديم وتأثراً به . وحسن هذا التمسك اذا لم يغال فيه لانه يزيل من بين القديم والجديد فترة الفوضى والضلال والتنكر .

فعند العشائر التوسط . وذلك انه اذا وقع خصام بين عشيرتين تتوسط عشيرة ثالثة كبيرة لإصلاح ذات البين . فيجلى اولاً القاتل او القتلة ريثما تتمكن العشيرة المتوسطة من تسكين الخواطر . واذا لم ينج القاتل بنفسه فمباح هدر دمه قبل الصلح ، ثم تنظر العشيرة المتوسطة ووجهاء العشيرتين في القضية ، وتقرر الدية وقد تتنازل عنها عشيرة المقتول بعد تقريرها .

عند ذلك تعقد الرايات البيض ويُشهد عاقدها (الزعيم المصلح) جميع الحاضرين والغائبين على الصلح ويحرّم الاخذ بالثار على اهل القتيل الحاضرين والغائبين والذين لم يولدوا بعد ؛ يُشهد الناس لكي يعينوه على اهل القتيل اذا خرقوا العهد . واذا كان القتلى من الطرفين يقرر فرق الديات ويعطى للعشيرة الخاسرة . وكثيراً ما ترفض العشيرة الدية ولكنها لا ترفضها الا بعد تقريرها .

في حادثة من هذا النوع طلب والد القتيل مئة ناقة وخمسين شاة وعشرة أباعر وثلاثة أفراس ، قائلا انه لا يطلب الا زهيداً مراعاة للحال !! وكان القاتل فقيراً لا يملك شروى نقير ، وكان احد الولاة حاضراً فاخذه العجب . فسكن روعه الزعيم المصلح وقل تريث . ثم التفت الى والد القتيل وقال له : « لك ذلك ولكن تنازل عن المئة ناقة اكراماً لخاطر الوالي »

قال — تنازلت

ـــ وعن الخمسين شاة اكراماً لهذه الذقن (ذقنه)

قال ـــ تنازلت

ـــ وعن الاباعر والافراس اكراماً لوجه الحاضرين.

قال ـــ تنازلت

فانصرف الوالي مشدوهاً .

وعند العشائر «الوجه» وهو نوع من اللجوء والاحتماء ، ومثله «التشهيد» وهو ان يعرف الضيف الناس انه متوجه الى مضيفه . فالمضيف في تينك الحالين مضطر الى الدفاع عن ضيفه وحمايته الى ان تنتهي ضيافته .

ونأتي الآن قبل الانتهاء من الموضوع على ذكر حادثة سلطان باشا الاطرش ليعلم القارئ بشيء من مصطلحات العشائر . وانتقال الجبل الى حكم النظام ؛ ذلك الانتقال الذي كان فجائياً في بعض الاحيان فلم تألفه النفوس وتأنس اليه كما هو شأن الشعوب الطفلة في ادوار انتقالها .

❀❀❀

وثبة سلطان

القي القبض على ادهم خنجر [١] وهو آتٍ الى بيت سلطان باشا في القريا . قبض عليه صياح بك الاطرش مدير الناحية والضابط فرحان العبد الله ، وارسلاه مخفوراً الى العاصمة (السويداء) حيث زجته الحكومة في السجن . فارسل كتاباً الى سلطان بواسطة النائب حمد البعيني يقول له فيه انه اتى الى داره ضيفاً و (مشهداً) . وذلك في الحادي والعشرين من تموز سنة ١٩٢٢

والعادة عند العرب ونعني العشائر منهم ، ان ضيفاً هذا شانه يدافَع عنه بالنفس والنفيس بقطع النظر عن منزلته وحاله ، فبعث سلطان على الفور باخيه علي الى السويداء متوسطاً ، مبيناً العادة في مثل تلك الحال ،

---

[١] المتهم باطلاق النار على الجنرال غورو في حادثة طريق القنيطرة المعروفة التي قتل فيها امين سرّه واصيب حقي بك العظم حاكم دمشق بجرح في شفته العليا .

سائلاً الافراج عن ادهم مع انه لا يعرفه معرفة شخصية، طالباً ان لا يجعل مضغة فى افواه العرب ، واحدوثة عندهم .

حدث ذلك وحاكم الجبل المغفور له الامير سليم الاطرش في دمشق ، فلم يفلح وكيله توفيق بك الاطرش في إقناع القومندان « ترنكا » مستشار الجبل يومئذ بتسليمه الى سلطان ريثما تسوّى قضيته على طريقة عشائرية ، وقد قال سلطان انه يسلمه اذا ثبت انه مجرم .

وسيق ادهم من السجن الى الثكنة الفرنسية ، فعاد غير مستطاع تسليمه .

قال القومندان لعلي اخي سلطان : « ان الرجل في القلعة ، ليأت اخوك ويأخذه ، لقد صار في حوزة الجند الفرنسي . عندكم المحافظة على الضيف وعند الجند المحافظة على الجاني » على اثر ذلك (غزّ) سلطان اللواء (بمعنى اعلن الحرب) داعياً القرى الى نجدته لخلاص ضيفه كي لا تلوكه السنة العرب وهو عندهم

صاحب « علم » (اي حكم نافذ الارادة) وعلى حدود البادية ، وارسل الى الامير برقية يستدعيه بها الى تلافي الخطر ، ولعلمه بان ضيفه سيساق الى دمشق قطع بفرسانه الطريقين المؤديتين اليها ، واتخذ الثعلة مركزاً لحركاته ثم انتقل الى كناكر تاركاً اخوته وحمد البربور احد اعوانه الاشداء وخاف الكليب شيخ عرب السردية وغيرهم وعدد الجميع أحد عشر مرابطاً على الطريق لينتظروا مرور الامير .

وانهم لفي انتظارهم ، اذا ثلاث سيارات قادمة . فإما انهم ظنوها سيارات الامير فاقبلوا عليها عازبي الذهن غير عالمين انها سيارات مصفحة اتت للنجدة ونقل ادهم . واما انها ظنتهم عصاة هاجمين فبادرتهم باطلاق المدافع والمترالیوز . فلما رأوا النار التي لا مفر منها انقضوا عليها وقفز بعضهم عن ظهور الجياد الى وسطها فراح قائد المدرعات الملازم بوكسان ضحية الغلط وقتل معه ثلاثة جنود ، وتعطلت المصفحتان الاوليان وفرت الثالثة

راجعة ، وبقي اربعة جنود اقيم شكيب وهاب على حراستهم ـــــ وشكيب هو المتهم بقتل فؤاد بك جبلاط .

وكان قد جاء على صوت البارود اربعون من فرسان الدرك بقيادة الرئيس حسني صخر والرئيسين نايف وابراهيم الاطرش . فما بلغوا مكان الحادثة (تل حديد) حتى اقبل الامير على سيارته ومعه نسيب بك . فارسل نسيباً الى سلطان في وجوب التنحي وترجل شاكي السلاح يقود الجنود الفرنسيين الذين ابقى عليهم سلطان وسار بهم ماشياً محافظاً عليهم حتى السويداء على بعد ساعة .

استمر خروج سلطان باشا على الحكومة ، وكانت الطيارات قد هدمت بيته واخذت الحكومة مواشيه ، حتى عفي عنه بمناسبة عيد الاستقلال سنة ١٩٢٣ في الخامس من نيسان حيث اعلن المسيو شوفلر مندوب المفوّض السامي العفو عنه على مائدة العشاء ، ولولا

ذلك لكان سلطان الى اليوم ضحية ضيفه والعادات العشائرية .

وفى الحادثة دليل على تبدل الاحكام في الجبل ، على ان الحكومة لا تأبى الفصل عشائرياً في القضايا متى شاء الاهلون كما حدث بصلح الثعلة والكرك مؤخراً في بصر فقد عقدت الرايات بين زعماء الدروز والحوارنة على أثر قتل واحد من الثعلة وآخر من الكرك ورفعت الراية البيضاء المعقودة يوماً كاملا امام دائرة الحاكم في السويداء .

— ٢ —

الحكم النظامي

للحكم النظامي اليد الطولى في تبدّل الحال الاجتماعية في الجبل .

إن اخلاق الجبليين لا تزال كما كانت من حيث

الكرم والنجدة، ولكن تبدلاً عظيماً أخذ يظهر في الاخلاق التي تؤثر فيها السياسة والتبدل الاجتماعي. فالشجاعة مثلاً اخذت بغير ثوبها الاول، بعد ان القى الدروز السيف جانباً؛ فانك تراهم يعنون بالعلم بعد عنايتهم بتثقيف المهند، والانقياد الى الزعماء والاتحاد فيما بينهم والقناعة بالرزق صفات تحوّل عنها الدروز الى غيرها. وتسرّب الطمع وحب الظهور الى كثيرين من الزعماء ورجال الدين حتى شغلتهم السياسة عن العبادة، وقد طرأ تبدل عظيم على اخلاقهم الدينية، فشيخ العقل في قنوات قدّم المشروبات الروحية على المائدة التي اقامها لفخامة الجنرال المفوض السامي [١] وقلما تخلو مائدة من مشروبات روحية اذا وجد من يشربها، هذا من حيث التساهل. واذكر ان الامير

[١] من العادات التي لا يزال الدروز قاطبةً يحافظون عليها أنهم يتنعون حتى عن تقديم المشروبات الروحية أو بيعها. وهم في لبنان على اختلاطهم الشديد بالاجانب لايزالون على حفاظهم.

سعيداً الجزائري احتج فى وليمة المرحوم الامير سليم التي اقامها له ولقناصل الدول في عرى على تقـديم المشروبات الروحية قائلاً : « ذلك ينهى عنه الخلق الديني » . وقد اصبحت التضحية من الصفات التي لا يتحلى بها الا القليل من الزعماء .

واتأسف اذ اقول ان الشجاعة الادبية لم تصل بعد الى الجبليين ، وانهم سريعو التنازل عن اخلاقهم القومية وعاداتهم المرعية ، وان التمليق داءٌ مستشرٍ نبعته التقية الآخذون هم باسبابها منـذ القديم . ولعل جميع ذلك عارض لابد منه في دور انتقال كدورهم . وربما كانوا في ذلك كالطير العريان قبل ان يكتسي ريشه الجديد . فاني معلق الآمال الكبار على المستقبل الاخلاقي والامام عليّ يقول : « لا تكرهوا اولادكم على اخلاقكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم » . فانك اذا رأيت اليوم المكر والخـداع والوشاية والرياء والإثرة والطمع فلن ترى ذلك في الغـد . ستقف المدارس

وتعليمها الاجباري سداً منيعاً وحصناً يرد غارات هذا الضعف الاخلاقي .

اما الحياة الاجتماعية فخاضعة كل الخضوع لنواميس الاقتصاد والسياسة . ولست اود ان ابحث في الاسباب ولكنني اقول ان الحياة الاجتماعية تغيرت . فمع ان الدرزي اليوم ينام آمناً الطوارئ التي كانت تؤرقه من قبل ، تراه قلقاً في حياته المنزلية . وترى جيشاً لجباً من المتزعمين الذين لاعهد لهم بالزعامة . وترى اختلاطاً في الطبقات فليس هنالك طبقة اجتماعية خاصة . وترى شيئاً من الفساد يتسرب الى العوائل .

هذا ايضاً من مظاهر الانتقال — ربما الى الافضل والاحسن — والحكم النظامي مع مايتبعه كفيل بحسن العاقبة .

❀❀❀

ابتدأ هذا الحكم في الجبل يوم اعلنت دولة الانتداب استقلاله الاداري في الخامس من نيسان سنة ١٩٢١ .

وفي العشرين منه تم الاتفاق مع الامير سليم الاطرش على تشكيل الحكومة ، فدعا الامير اعيان الشعب فاجتمعوا في اول ايار من تلك السنة وانتخبوه حاكماً ونادوا به اميراً . وتقرر تقسيم الجبل الى ثلاث عشرة مديرية . وانتخب مجلس نيابي مؤلف من ٤٤ عضواً اجتمع لاول مرة في ٦ ايار من تلك السنة . واصطلح على علم يرمز الى أمور دينية جعلت الوانه من فوق الى تحت عرضاً الاخضر فالاحمر فالاصفر فالازرق فالابيض وفي جانبه الايسر ١٣ نجمة اشارة الى ١٣ ناحية . وانتخب قائداً للدرك توفيق بك الاطرش . ومديراً للمخابرات وديع بك تلحوق . وبضعة انفار من الدرك زيدوا بعد حين حتى بلغوا ٢٥٠ فارسا و ٥٠ راجلا برئاسة الرئيسين السيد حسني صخر من دمشق والسيد محمد كيوان من لبنان . ولم تنته السنة حتى سمي ١٣ ضابطا و ١٣ مديراً للنواحي كما يلي :

اسم الناحية	مديرها	ضابطها
عرى	هلال درويش	نصر الدين صلاح
القريا	صياح الحمود الاطرش	فرحان العبد الله
« صلخد »	جاد الله الاطرش	حمد الاطرش
ملح	فضل الله النجم الاطرش	هلال ابو مغضب
ساله	سليمان نصار	عبد الكريم سلام
المجدل	سلمان هنيدي	مصطفى الشعراني
نجران	خليل ابو فخر	ابراهيم نصر
عاهره	حمد عزام	شبيب القنطار
وادي اللوا	شبلي عز الدين	سليم الحلبي
الهيت	جميل عامر	مهاوش نوفل
شهبه	سلمان عامر	اسماعيل عامر
سليم	سعيد ابو عساف	جبر شلغين
عره	سلمان القلعاني	حمود الصحناوي

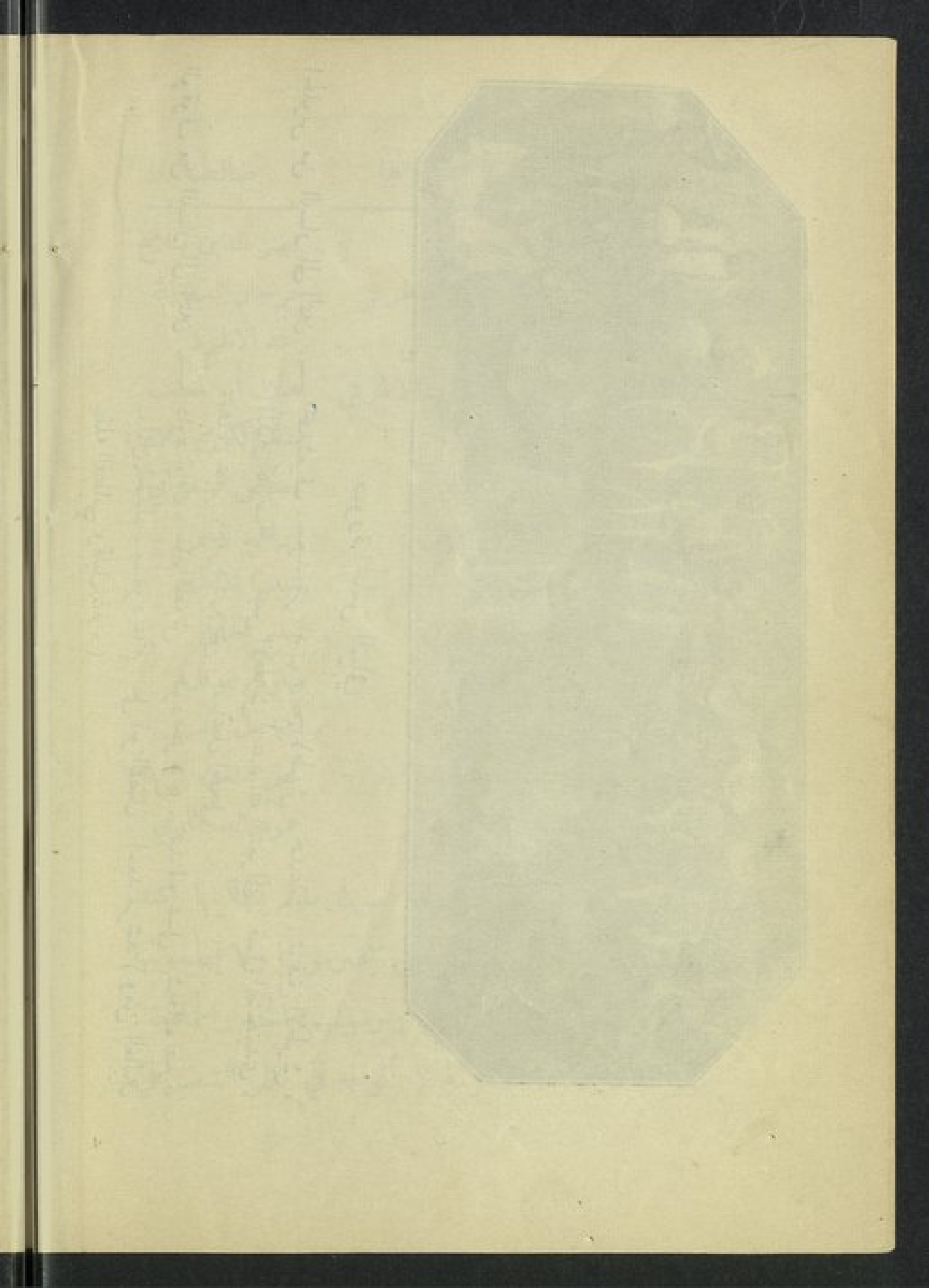
وقد صادفت الحكومة في بدء تشكيلها أشد الصعوبات ، اذ لم يكن الناس يحترمونها ولا يطيعونها بل يضحكون من القائمين بها ويرمونهم بالخفة والحماقة . ماذا ؟ دولة ؟ حكومة ؟ توافه في نظر الشعب في



صورة المجلس النيابي

الجلوس من اليسار الى اليمين — محمد شرف ، سعيد عز الدين ، نجم الاطرش ، حمد عامر ، توفيق الاطرش ، الكبتن كاربيه ، برجس الاطرش ، عبد الله الشعراني ، فضل الله هنيدي ، هايل عامر ، حمزه درويش ، اسماعيل الحجلي .

الوقوف من اليسار الى اليمين — داود نوفل ، سليم المغوش ، حمود جربوع ، محمد ابو عسلي ، شحاده نصر ، خليل الحداد ، مسعود غانم ، علي ابو الفضل ، اسعد مرشد (ومن الغائبين عقله القطامي وقليل غيره) .



ذلك الحين !.. فحدثت مؤامرة اضطرت الامير الى هبوط دمشق ، والقائد العام الى خلع ثوبه العسكري.

كان الدروز يهزأون بحكومتهم ويرمون الجنود بالدناءة ويحرضون على ثلها ، والأمير خلال ذلك يصطنع الجنود ويكرمهم ويدفع لهم مرتباتهم من ماله الخاص ويعامل الناس بالحسنى اكتساباً لثقتهم الشموسة وتوطيداً لاستقلالهم.وكان القومندان ترنكا (المستشار) اول جندي فرنسي دخل جبل الدروز بمعية الامير ونزل هو وحاشيته ورجال الحكومة ضيوفاً على الامير ينفق عليهم من جيبه الى ان استقروا في منازلهم ، وقد ابى التعويض بعد ذلك قائلاً ان الفرنسيين ضيوفنا ونحن الذين دعوناهم الى هذه الضيافة ، رامزاً الى دخولهم الودي.

وعاد الامير من دمشق . وعقبه الكولونل بوله. فعادت الاحوال الى سابق عهدها . وعين عبد الغفار باشا الاطرش مفتشاً عاماً لجميع دوائر الحكومة . وسلامه

الاطرش رئيساً لمحكمة البداية . وعلي عبيد رئيس كتاب . وضاهر عامر ومحمد المغوش وعيسى البري اعضاء . ومصطفى المفتي مديراً للمالية . وعلي الاطرش مديراً للنفوس الى ان خلفه فهد الاطرش كما خلف محمود حاطوم المرحوم وديع تلحوق في ادارة المخابرات .

❀❀❀

وقبل ان تمت هذه التشكيلات كان الدرك كل شيء تقريباً . فالمحاكمات عند رئاسة الدرك واستئنافها عند القيادة العامة وتمييزها عند الحاكم . والجباية والخزانة عند الدرك فهو جابي الاموال ومؤدي الرواتب . وللدرك الفضل في اقرار الامن في نصابه من حادثة ساله الى فتنة الشقوق الى حادثة تل الخالدية الى وثبة سلطان وفتنة عرمان .

كانت قوة الدرك معنوية فقد اختير افرادها من العشائر فصار الجند « يهدد الدروز بالدروز » ، والجندي يحمل اسم عشيرته وهيبتها لان العشيرة لا تسمح بذهاب

دمه هدراً . لذلك كان الدروز يتهيبون الجنود خوفاً من عشائرهم . وسلطان باشا نفسه كان يتحاشى سفك دم جندي ، وقد علم الجنود ذلك فكانوا يهاجمونه مهما يقلّ عددهم ويكثر عدد اتباعه .

هذا وان معاونة القومندان ترنكا للحاكم عادت بعمران ونفع جزيل ولا سيما في مدة وكالته فانه فتح الطرق . ووضع حجر الاساس للمعارف بتفويضه واضع هذا الكتاب السيد عبد الله النجار بها . واقام سوق عيد الاستقلال . ووطد اركان الامن والنظام .

❀❀❀

اعتزل الامير الحكم في اوائل سنة ١٩٢٣ وناب عنه وكيلاً القومندان ترنكا حتى الرابع والعشرين من شهر تموز إذ توجه الى عرى المسيو شوفلر مندوب المفوض السامي وهناك اقنع الامير بالعود الى خدمة وطنه على رأس حكومته فقبل . وتعين الكبتن كاربيه مستشاراً ادارياً له ، حتى يوم فجيعة الجبل بوفاته .

وظل الكبتن دائباً في اتباع خطة سلفه مجتهداً في خدمة جبل الدروز الذي القى اليه زمام وكالة الحاكمية وهو مشهور بسهره على الاعمال التي يمارسها ليلاً ونهاراً وهو يشرف بنفسه على الاعمال كبيرها وصغيرها . وحقاً انه لمن الحماقة ان نعتبر جبل الدروز دولة كالدول الواسعة التي تحتاج الى ادارات متعددة . فهو قد كان (قضاء) في زمن الترك فكيف يجوز أن تحدث فيه الادارات الكبيرة ويجلس الحاكم على كرسيه لينظر في الاوراق التي ترفع اليه فحسب . لذلك رأينا الكبتن يتدخل في جميع الاعمال ، لاتضيقاً على رؤساء دوائره بل ضناً بالمصلحة العامة ان يصيبها حيف . وليست شؤون الحكومة من الكثرة بحيث تقسم على كثيرين ، فمن اعمال الكبتن تنشيط المدارس وتكثيرها ، والسهر على الامن ، واصلاح الطرق وفتحها ، وانشاء متحف الآثار البديع المتقن .

❀❀❀

اقسام حكومته اليوم

الملكية : مؤلفة من مديرية الداخلية وقائمقاميتين ومديريات نواحي . مديرها توفيق بك الاطرش . والقائمقامان طلال باشا عامر (شهبه) وفهد بك الاطرش (صلخد)

العدلية : مديرها محمد بك الحلبي ، ومحكمة استئناف رئيسها منصور بك عبدالصمد ، وثلاث محاكم صلحية حكامها علي بك عبيد (في السويداء) وصياح بك الاطرش (في صلخد) وحسين بك الحلبي (في شهبا)

المعارف : مديرها السيد النجار . يتبعها عشرون مدرسة منها مدرسة عليا (في سنتها الاولى) .

المالية : مديرها السيد صادق الترزي .

الدرك : قائده السيد حسني صخر ورؤساء سراياه نايف وابراهيم الاطرش وفواز الحلبي .

النفوس : مديرها جاد الله بك الاطرش .

المخابرات : مدير قلمها السيد نجم الفقيه .

المعتمدية : للجبل معتمد بدمشق هو نسيب بك الاطرش .

الشرعية : قاضي المذهب الذي يتقاضى الحكومة راتبه وهو الشيخ محمود ابو فخر .

البعثة

هي الدائرة الافرنسية بالجبل الموكول اليها تمثيل الانتداب من قبل مندوب المفوض السامي لدى حكومتي دمشق وجبل الدروز . نأتي على ذكرها لشدة ارتباطها بالحكومة ولانها ظلت زمناً ولا تزال دائرة وكيل الحاكم الذي هو في الوقت نفسه رئيس المجلس النيابي .

رئيسها الاول القومندان ترانكا والثاني الكبتن كاربيه • ومن تراجمتها السيد عزيز ابي راشد ، وخلفه

السيد يوسف الشدياق ، والسيد انطون ملحمه . ومن امنائها الملازم (بكمان) فالملازم « فرتيه » فالملازم « مورل » .

٥ نيسان

في الخامس من نيسان سنة ١٩٢٢ اعلن استقلال الجبل رسمياً . وفي الخامس من نيسان كل عام بعد ذلك تقام الحفلات والمهرجانات في عاصمة الجبل تذكاراً لاعلان استقلاله وتدعى اليها الحكومات السورية .

لا نكلف نفسنا وصف مهرجانات العيد فهي مشابهة في كل عيد وقد كتبت الصحف في وصفها الفصول الطوال . ولكننا نثبت رأي احدى امهات الصحف بمناسبة عيد الاستقلال ونثبت القصيدة الوحيدة التي قيلت فيه :

قالت (الف باء) في عددها ٢٨٣ تحت عنوان (الجبال الثلاثة) :

« وهناك جبل ثالث يقال له جبل الدروز يهزأ بكل هذه المنافسات والاختلافات القائمة على ساق وقدم بين ابناء هذه الامة ، ويقول مالي ولهؤلاء الناس الذين ينسلون في الليل ما ينسجون في النهار ، ويجعلون بلادهم بابل جديدة من حيث تنوع الغايات والاغراض . فانا قد عشت منفرداً لنفسي حتى الآن وسأسعى لها وحدها من بعد ... وعلى هذا يؤسس الجبل له حكومة خاصة ، وينتخب لها اميراً ، وشكل دوائر وادارات ويسير في الطريق المؤدي الى الرقي ببطء ربما كان كبطء السلحفاة ولكنه على كل حال افضل من عجرفة الارنب المدّعي وربما وصل الى محجة الاستقلال قبل غيره ...

« ... مصدرها (اي مسألة الانفصال) الدين لا العنصرية عندنا ولهذا قلنا ان حكومة جبل الدروز ستذوق طعم الاستقلال الحقيقي قبل غيرها لانها خالية من هذا الداء .

« .. قلنا ان اخواننا الدروز سلموا من هذا الداء — داء الاكثرية والاقلية على قاعدة الديانات [١] — لانهم ابناء دين واحد ويجمعهم جبل واحد . وهذا ما حفظ لهم استقلالهم في الادوار التي مرت على سورية وجعل جبلهم مهيباً لا يرام حتى في ايام جمال باشا . وكفى شاهداً ان الثورة العربية منه كانت

---

[١] لا ينس شيخ صحافيي سورية داء العشائر وتنافسها وان كلاً (مصيبته على قدره) .

تستمد نجدتها واليه يلتجيء رجالها . ومتى دخله الهارب من فظائع تلك الايام يصبح في مأمن . ولكن من اين لنا مثل هذا الاتحاد في بقية المقاطعات ؟ ان ذلك يتطلب جمع ابناء كل دين في بقعة لوحدها وهو عمل تعجز عنه القوى البشرية . الا اذا أرسل الله نبياً جديداً يجمع هذه الاهواء المختلفة الى دين واحد اعني دين الوطنية » .

اما القصيدة فهي من نظم واضع هذا الكتاب . القاها في عيد سنة ١٩٢٣ قبل اعلان العفو عن سلطان باشا :

حل في مغناك مقتربا ... كيف يشكو البين مغتربا
بنت لما بان منزله ... فرآك المنزل الرحبا
كتب الحظ الشقاء له ... فمحت كفاك ما كتبا
طلب العلياء منتحياً ... فاذا انت الذي طلبا

❀❀❀

يا بني معروف طودكم ... في علاه عانق السحبا
فجرت للضيف اربعه ... كرماً كالغيث منسكبا
لا ينال الضيم جاركم ... وبه يعتز من نكبا
معقل حل الاباء به ... فتنحى الذل منتحبا

❀❀❀

جبل عزت جوانبه فطوى في عزها حقبا
لم يلن للخطب مقتحماً لا ولا للحكم مغتصبا
واغاث المبتلين به يوم هب الجوع منتهبا[١]
ان طوداً تلك شيمته مستحق نيل ما رغبا

❁❁❁

قد اتاك العيد مبتسماً فعذيري جئت مكتئبا
ان أراك اليوم منفصلاً هاج بي الاشجان واللهبا
أرّق النأي المحب اسى قل متى نلقاك مقتربا
فترى والبين منصرم شاعراً غنى وقد طربا

❁❁❁

هبت الاقوام ناشدة في حمى استقلالها أربا
تبتغيه في تماسكها ساء في التفريق منقلبا
هكذا والدهر مرتقب فلتكن للدهر مرتقبا
ان سوريا بوحدتها فارعها يا ابن محتسبا

❁❁❁

ايه يا لبنان هاك أخاً ماس باستقلاله عجبا
تبسط الارجاء بينكما لانضمام فاقبل الطلبا
ولتقف في الغرب محترساً وليقف في الشرق متكبا

---

[١] اشارة الى المجاعة في الحرب العامة كما سبق تفصيلها .

واحرسا اماً اتت لكما تستقل الشوق ملتهبا

❁❁❁

يا بني معروف حسبكم من عريق المجد ما نسبا
بسقت اغصانكم حسباً وصفت اعراقكم نسبا
انما استقلالكم ابداً ان تروموا العلم والادبا
فهو لا يرجى بغيرهما وهو للوانين ما وهبا

❁❁❁

تمموا للعيد بهجته واجعلوها للولا سببا
واذكروا سلطان منتشياً واستميحوا العفو (منتدبا)
لا تخلوا شاكياً الماً فالوفا قد زين العربا
عيدكم عيد يشوق اذن كل من وافاه مقتربا



الباب الثالث

اقوال الغربيين
فيه

نعود بالقارئ الى القسم الاول من الكتاب ورأينا في المستشرقين ، ونحن على اهبة عرض اقوال البعض منهم في جبل الدروز . ونأسف اضيق النطاق عن استيعاب جميع ما قيل فيه ، ولا ضطرارنا الى اختيار من زاره منهم بعد دخوله في حكم النظام ولولم يكن اولئك الزائرون من ثقات الباحثين .

الذين ندون نبذاً من اقوالهم مؤلفوا كتب كثيرة متداولة ومنشئوا المقالات الممتعة في كبريات مجلات الغرب. فهم إذن مشهورون في قومهم وكلمتهم مسموعة في بلادهم تترك عنا دوياً في الآذان ، ونحن محقون في اهتمامنا بهم وتفنيد غير الصائب من قولتهم .

أن لا نسميهم مستشرقين لا يحط من اقدارهم وخطرهم

فمؤلفات المستشرقين اقل ما يقرأ الغربيون ، اما مقالاتهم مموهة بالاستغراب ، ملونة بغير المألوف من الالوان ؛ ممزوجة بأخف الحقائق على المعد ؛ فهي التي يقبل عليها ويتهافت .

لا أحسبني أغلو . فالاستشراق الصحيح علم لا يقبل عليه الا الفضوليون من ابناء الفرنجة بعامل خاص لا تجده الا في النزر اليسير . فرغبة الناس هنالك عنه الى كتب الادب امر بديهي لا يعوزه إثبات. وليتك تدرك طرب الغربي عند قراءة لاشيء غريب عن الشرق في هذه الكتب وليتك تدرك اندفاع كاتبيها في استنباط عجائب الغرائب والاغراق فيها الى حد الهذيان .

نذكر ثلاثة زاروا جبل الدروز ولا نتهمهم جميعاً ؛ او نشرك معهم اولئك الذين زودوهم بتلك المعلومات الناقصة . ان هم الا عابروا طريق .

❀❀❀

— ١ —

مريم هرّي
Miriam Harry

هي كاتبة فرنسية معروفة جاءت سوريه منذ الاحتلال الافرنسي ورافقت حملة الجنرال غوابه على دمشق . لها فصول طوال عن بلادنا في مجلات باريس «كالألوستراسيون» و« اللكتوربورتوس » ولكنها وصافة سطحية الابحاث . ودونك بعض ما قالت :

« قبل ان يبرح الجنرال غورو سورية منح جبل الدروز استقلالاً اداريا .

لقد نبه بذلك ذكر الدروز كما نبه سابقاً يوم زار لامرتين[١] اميرهم « بشيراً » (كذا تقول) في دير القمر . ويوم اعتزلت اللايدي ستنهوب [٢] في جبال لبنان الخالية معللة نفسها بحلمها الجميل في مشاركة الدروز بعباداتهم .

---

[١] Lamrtine الشاعر الافرنسي الشهير الذي زار سورية سنة ١٨٣٢ ثم ذكر ذلك في كتابه « السياحة في الشرق » المطبوع سنة ١٨٣٥

[٢] Lady Stanhope المستشرقة الانكليزية التي سكنت بين اقوام سورية سنة ١٨١٤

بعد ذلك بقليل زعم جيراردي نرفال Gérard de Nerval في كتابه الرائع القاصر ان الدروز متحدرون من اصل فرنسي فالتشابه في الاخلاق والاسماء والفروسية كان سبباً في زعمه ان الدروز هم سلالة دوقات دروس Dues Dreux الذين سكنوا لبنان اثناء الحروب الصليبية .

قالوا — متجردين عن الخيالات الشعرية !! هذه المرة — انه في سنة ١٨٦٠ بعد مذابح الموارنة المؤلمة [١] التي جرت التدخل الفرنسي نزح جانب كبير من الدروز الى داخلية بلاد الشام نحو بلاد جبلية خلف سهول مخصبة — نحو حوران (باشان التوراة) و (اورانتيد الرومان)

وقد ثبتوا هناك تعضدهم انكلترة سراً متمتعين باستقلال يشبه استقلال الموارنة بحماية فرنسه [٢]

---

[١] تقصد حرب لبنان الاهلية . ولكن الدروز نزحوا الى جبل حوران قبل ذلك بمئتي سنة . والحرب الاهلية لم تضطر الدروز الى الهجرة قط .

[٢] لم تعضد انكلترة دروز حوران . ولم يكن في ذلك الحين استقلال للموارنة كما انه ليس لهم الآن لاشتراك طوائف كثيرة معهم بعكس الدروز المستقلين من قبل استقلالاً فعلياً لا اسمياً ، ومن بعد استقلالاً رسمياً .

ولكن اذا كان الموارنة شعباً ليناً زراعاً فالدروز تياهون بمزايا الحرب والرعاء [١] التي عززوها بسحق البدو ، ونهب قرى المسيحيين احفاد ملوك غسان القدماء المشهورين ، اذ كانوا ينقضون من اعشاش النسور على قطعان السهول وغلالها ، حتى اضطر سكان حوران القدماء بعد عشر سنوات الى الاحتماء باللجاه البركاني وسمي جبل حوران باسم منتزعيه (جبل الدروز)

وما برح باشليق (ولاة) الشام في عراك مستمر مع هؤلاء العصاة الذين كانوا يرفضون تأدية الضرائب والتجند ولم يقدر كبح جماحهم غير يد جمال باشا الحديدية التي شيدت ثكنة عظيمة في السويداء عاصمتهم [٢]

ولكنهم في الحرب الكبرى نهبوا الثكنة وملأوا جيوبهم

---

[١] عجباً لها كيف تنكر ان الدروز شعب زراع بل خير زراع في اخصب بقعة . وهم ليسوا رعاة بل ان البدو رعاة مواشيهم ، ولم يكن الدروز في جميع ادوارهم الا مدافعين عن كيانهم . اما العجب كل العجب فهو نسبتها الى اللبنانيين حسن الزرع وجعل الزراعة ميزة بارزة .

[٢] كان تمتعهم باقصى حدود الاستقلال في عهد جمال باشا والثكنة لم يبنها جمال بل بنيت سنة ١٨٩١ اي قبله بخمسة وعشرين سنة . وهي تغالط نفسها في الفقرة التالية عن نهبها .

باثمان المواشي التي كانوا يبيعونها للجيوش المختلفة [١] وعاشوا باستقلال فوضوي حتى وافاهم الانتداب الفرنسي على سورية على أثر وصول الجنرال غورو وتفوا وقفة المتوقع المنتظر ومع ذلك هرعوا على متون جيادهم المطهمة ليستقبلوا المفوض السامي بتهاليلهم.

وظلت بيروت اياماً عديدة تشاهد هؤلاء الاغنياء الحديثي النعمة ابناء الصحراء (كذا) ذوي العيون المكحلة والضفائر المسترخية على اكتافهم حتى مقابض خناجرهم يسحبون ذيول عباءاتهم الموشاة بالذهب ويفرغون على موائد المقاهي قبضات من (العسمليات) والجنيهات.

ثم اختفوا كفوارس الملاعب ليدوروا حول الامير فيصل ثم حول الجنرال غوابه Goybet عند دخوله دمشق بعد ستة شهور [٢]

ولكن لما اراد الجنرال غورو تنظيم جبل الدروز فارسل

---

[١] من علامات تحقيقها ان نسبت ثروة الدروز الى الماشية لا الى الحنطة كما حدث في الحرب العامة وبيعها للجيوش المختلفة ؟!.

[٢] اوضحنا في فصل سابق عن الانتداب السبب في تردد الدروز وانقسامهم. فحزب الانتداب الفرنسي لم يتحول عن خطته كما تقول الكاتبة وقد قتل احد اركانه في طريق دمشق وهو راجع من بيروت.

مستشاراً القوماندان ترنكا Tren ga — ذلك الذي ارجع الينا قبائل دير الزور العراقية — رفع بعض العصاة العلم الشريفي على دار الحكومة [١].

عندئذ استدعيت جيوش الزنوج تحت امرة الكولونل بوله paulet واسطول دمشق الهوائي تحت امرة (شملتز) الذي اتى بالمجرم المسبب ملق في طيارته الى اقدام الجنرال ».

وتنتقل الكاتبة الى وصف السويداء :

« السويداء ... اشتهرت بسقوف القرميد [٢] على بيوت اغنيائها الجدد وبالابنية المبنية بمنهوبات الثكنة التركية وفيها من الآثار القديمة كالعنب مايذكرنا بتعنيف ترتليانوس [٣] لمسيحيي حوران (اورانيد) على تشبثهم بعبادة الاله باخوس اله الكرمة . وكالاعمدة الدوريانية والكورنثية والبيزنطية واصداف عفروذيت واجران المعمودية .

وقد أراني القومندان ترنكا قطعاً من النقود عليها رأس (ايزيس) وقطعاً عليها رسم اله الشمس وكتابات نبطية

---

[١] لم يرفع العلم على دار الحكومة بل ان اسد بك الاطرش الذي عاد يومئذ من الشرق العربي رفعه على داره . وهو لم ينقل الى دمشق على طيارة .

[٢] ليس في السويداء الا ثلاث سقوف قرميد ..

[٣] كاتب روماني شهير .

وساروفيم [١] التوراة وكتابة على عمود تشهد بنزول الفرقة (الغالية) الثالثة [٢] في مكسميا نوبوليس (السويداء) وفتحها الطرق وجرها المياه .

ويلاحظ الكبتن موبوسان ان اجدادنا البيض الجلود كانوا يقومون في مستعمرات الرومان بالاعمال نفسها التي يقوم بها اليوم جيوشنا السود ...

... يزعم البعض ان الدروز هم بقايا السامريين لانه وجد عندهم تماثيل العجل [٣] ويزعم البعض انهم من الفينيقيين عبدة عشتروت لانهم يعبدون للقمر ويبنون هياكلهم على اماكن مرتفعة قديمة !! [٤]

---

[١] ملائكة الله ومثلهم الكاروبيم .

[٢] لما كانت غاليا (فرنسه القديمة) مستعمرة رومانية كان الرومان يؤلفون من رجالها فرقاً في جيشهم يستخدمونها للفتح والانشاآت .

[٣] هذا مبلغ تحقيقها .. انها تردد كلام الكاهن الذي تقول (في فقرة محذوفة) انه رافقها . فلله دره ودرها .

[٤] تقصد التيمن برؤية الهلال في يومه الاول وهو غير خاص بالدروز . وقد يكون قولها وجيهاً . اما الهياكل فليست عند الدروز ولا هم يبنونها في مرتفعات فمجالسهم عادية تشبه بيوت الاجتماع عند بعض الشيع البروتستانية لخلوها الا من المقاعد

اما الحقيقة فهي انهم يمتون بصلة الى جميع الأديان ويكرمون جميع القديسين . فيزورون ضريح العذراء مع المسيحيين . ويدفنون موتاهم في الليل [١] كاليهود . ويقسمون بمحمد مع المسلمين . ويعتقدون التناسخ كالفرس . ويتكلمون دوماً عن الصين من حيث سيأتي المسيح وحيث الفردوس ...

... صادفنا في طريقنا الى قنوات خرائب هيكل اله الشمس الذي بناه (هيرودس اغريبا) موبخ سكان قنوات على اخلاقهم الوحشية بكتابة منقوشة احتملها الالمان اثناء الحرب .

وهيكل آخر للمشتري (جوبتر) عند مدخل المدينة وهو بناء جميل مرتفع على قاعدة ترتكز عليها اعمدة كورنثية رائعة حولها تماثيل وقطع رخامية حديثة الكسر تشهد بمرور الالمان من هنالك واحتمالهم القطع النفيسة ...

... هذه المضافات هي بمثابة فنادق مجانية وهي كثيرة جداً عند الدروز الذين يعتبرون الضيافة من واجباتهم المقدسة ، فلكل مسافر او عابر طريق ودابته الحق بثلاثة ايام اكل ومبيت ...

وبينما كان صانع القهوة يضرب جوانب الجرن الخشبي بالمدقة الخشبية على نغمات الرقص الموسيقية . كان رفيقه يعزف على

[١] لايدفن الدروز موتاهم في الليل . بل في النهار . ولا نفند مابقي .

وتر الرباب متغنياً بحب الدروز لفرنسه ، وذلك بين خطابات الترحيب والاشعار . ولا غرو فان الدروز يحبون الالقاء .

وبعد ذلك احضر لنا من قبل الكاهن الاعظم (تعني شيخ العقل) طبق واسع تنقلب عليه عناقيد العنب المتفخة الشهية الى حدٍ يعـذر معه المسيحيون الأقدمون على عبادتهم إله الكرمة .

ثم مررنا في شوارع قديمة مبلطة بين اسوار تذكرني باسوار اورشليم . حتى وصلنا الى مطلّ رائع في احدى جهاته اسوار هيرودس العالية وفي الأخرى هضبة خضراء بينهما وادٍ وعر يجري فيه جدول تحنو على ضفتيه اشجار الحور والدلب — كأنما هو جدول من جداول فرنسه !!

وعلى كتف الوادي كرمة مستندة الى أعمدة حولها الخرائب والماعز تتواثب على درجات ملعب قديم . وفي اعلى الهضبة قلعة النبي ايوب .

على ان اضخم الابنيـة واجملها هيكل (باخوس) الكبير قبل ان اصبح كنيسة — فاننا لاحظنا صلباناً بيزنطيـة في ابوابه الثلاثة المنقوش عليها عناقيد العنب .

وخلف هذه الواجهة الجميلة فناء واسع فيه أروقة تدلّ على انه كان هيكلا قبل أن صار كنيسة . وحولها صوامع كانت للعبادة يسكنها اليوم عائلة تقية . فسلم علينا رب البيت سلاماً كبيراً ..

وقال لنا باعتقاد ثابت (ههنا بيت ايوب) وقادنا الى حجرة مستديرة مزدانة باعشاش من اصداف متفر وذيت   هـ .

— ٢ —

رُسل ريزنغ
Russell Reusing



هو رحالة اميركي قطع سبعين الف ميل ، فجاب

اليابان والصين والهنـد وألاسكا والتبت (تيبت) والقريم وسائر بلاد الشرق ومجاهله. وظنه الكثيرون ولي عهد الانكليز لشدة الشبه به وهو يقاربه سناً. رافق الرحالة المشاء الشهير (رتشرد هلبرتن) في الصين.

زار جبل الدروز. فتعرفنا اليه. وكتب عن الجبل والدروز الفصول الطوال في امهات المجلات الاميركية. فليس في وسعنا الاتيان على جميع ما كتب وتفنيده. ونحسب انه اصـدق من كتب عن عقائد الدروز وتاريخهم ونكتفي بتعريب نتفة من كتاباته ونغضي على الباقي لمشابهته لما كتبنا في مطلع الكتاب عن الدروز واجتناباً للاعادة.

قال:

(كعش النسر القائم في اعالي الصخور الشماء على اكتاف الهوى المتنائبة يقع حمى الدروز السرين الصخري.

ولرب سائل من هم الدروز؟

الدروز طائفة سرية النحلة في بلاد الشام ظهرت في القرن

العاشر يوم كان العرب منهمكين في مذاهبهم الفلسفية وعقائدهم الدينية ، ويوم كثر دعاة المذاهب والفرق على خشونتهم واشتداد مرتهم . وكان الحاكم الخليفة الفاطمي في مصر غريب الاطوار اله الفلاسفة الذين احاطوا به ونسجوا حوله فلسفة التوحيد (Unitarianism) التي دان بها الدروز سراً ..

... تسموا كذلك نسبة الى احد الدعاة المغضوب عليه فيما بعد ولما اشتد عليهم الضغط والارهاق نزحوا (اي الذين نزحوا منهم) عشائر الى اعالي حوران الصخرية البدوية ليمارسوا هناك عقائدهم ...

... مرت العصور فاذا الدروز فئة تكتنفها الارستقراطية والطغمة الدينية . فكان من اخلاقهم العنصرية ونزعاتهم الدينية ما الف بين صفوفهم ووحد اجزاءهم حتى اصبحوا في حصنهم الجبلي المنيع أصلب واخطر جماعة في العرب .

انهم شعث ابناء الجبال من العشائر الخشنة غير انهم رقيقو الحواشي ناعمو الملمس . ومتى القيت عضدك على مسائدهم الوثيرة المزركشة وتمتعت في مضافاتهم برفهنياتها شعرت بحرارة قلوبهم وترحيبها الذي تهمس به (خيمة ابراهيم) [١]

إلا انه متى سلت سيوفهم من الاغماد كان الضارب بها أصلب

---

[١] اشارة الى اساطير التوراة والضيافة التي اشتهرت بها شعوب الشرق القديمة

قوم في غربي آسيا — الدروز حتى ان زهرة الجيش المصري [١] انكمشت وانهزمت من وجه تلك السواعد التي لاتلوى ...

... الدروز سكان بلد من اقدم بلاد ممالك التوراة [٢] ... ليس انهم في بلد التوراة فحسب . بل ان حياتهم الاجتماعية لنسخة عن تلك الايام التي كان ينحر فيها « العجل المسمن » في جانب خيمة ابراهيم الخليل .

ولقد ذاقت زمرتنا في قنوات (عند وهبه بك جزان) لحوم « العجل المسمن » الذي ذبح لها حين كانت قافلتنا [٣] تتجه نحو قريته الحافلة بالخرائب

ذكرتني البلاد وحفاوة الدروز وكرمهم باصقاع لم تنصب فيها قط خيمة ابراهيم . فاني انكمش عن تذكر رحلتنا في اعالي التبت (تيبت) حيث اعوز اللحم قافلتي الصغيرة . واذ ذبحنا « عجلاً مسمناً » من القطعان المقدسة عند التبتيين لنقتات به ألقى علينا هؤلاء القبض فصرنا نتضرع اليهم كي لا يذبحونا بخناجرهم المزخرفة المسلولة فوق اعناقنا .

---

[١] في حرب اللجاه المتقدم ذكرها في القسم التاريخي عن الجبل

[٢] وهنا يأتي الكاتب على سلسلة تاريخية منذ العهد القديم نضرب صفحاً عنها لطولها .

[٣] استفاد الكاتب من مرور احدى القوافل كما ترى في احدى رسوم الآثار سابقاً فسماها قافلته .

ان الدروز كما قلت اشبه باقوام التوراة واخلاقها التي يمارسونها في بلاد الهياكل والقصور وبقايا الممالك . وبالرغم من ذلك وما يتبعه من الحسنات التقليدية فالدروز في نظر العالم شعب متهم بديانة سيئة .

ولكي انفي تلك التهمة اذكر تغنيهم بحب الاميركيين [١] تغنياً بمجد تلك الامة حتى في الاصقاع المجهولة عند قبيلة خفية . »

— ٣ —

الأخوان تارو

Jérôme et Jean Tharaud

هما مؤلفا كتاب (طريق دمشق) المحشو اغلاطاً والذي يجعل لكتابات مريم هري قيمة نسبية .. زارا سورية حتى جبل الدروز . وبعد طبع الكتاب انتقدته الصحف كثيراً . وانا لا نكلف نفسنا نقده كله او ايراد

[١] كثيرون من دروز الجبل هاجروا الى اميركا وعرفوا من احوالها ما دعا الى استغراب الكاتب الذي خالطهم في منازلهم بضعة ايام . اما السيدة مريم هري فلم تعرف وتتعرف الى غير القومندان ترنكا مصدر معلوماتها .

كل ما جاء فيه . حسبنا نتف من مقاله في الدروز

—— نتف لم يذكرها سابقاها . وهي مستقاة من المصدر الذي استقت منه الكاتبة الاولى : ——

« ... ومن هؤلاء اللاهوتيين ولكن على شكل غريب ، الدروز القاطنون نجداً بركانياً اسود حافلاً بالحجارة ورماد الحمم على حدود البادية قرب منابع الاردن (كذا يقول !!) فعندهم ايضاً آخر تجسد للإله في شخص سليل علي وهو الخليفة الفاطمي المشهور الذي يشبه نيرون من حيث تعطشه لسفك الدماء وغرابة اطواره [١] . وكان يعبد زحلاً (كذا .) وقد قضى سنين عديدة في قصره بالقاهرة والشموع تنيره ليلاً ونهاراً ثم رغب في الظلام فعاش مدة فيه . وحظر على النساء الخروج الى الشوارع حتى اذا صادف احداهن في الطريق أميتت جلداً . ومنع كل عمل بعد الغروب . وكان من مسراته ان يرمي من نوافذ قصره اوراقاً هي اوامر بالمكافأة او بالجلد المميت يحملها ملتقطها الى ادارة الشرطة حيث تنفذ فيه بالحال .

[١] لندعه يغرق في قرباته وسخافاته ... غير انه لا ينكر ان غرابة الاطوار مما اتصف به الانبياء المكرمين جميعاً كعيسى ابن مريم عليه السلام الذي يؤلهه المسيحيون ويعبدونه .

ويقال انه اهلك مدة ملكه عشرين الفاً بهذه الواسطة .

(ليتأمل القارئ هذه الاكاذيب . وهي تشبه ما كتبه رؤساء كهنة اليهود عن المسيح من حيث التشويه)

« .. بينهم العقال (الاجاويد) المحتفظون وحدهم بالحقائق المكتومة . يعيشون بالزهد والتقشف الشديدين . والقابهم وراثية [١] وهم معروفون بعمائمهم البيضاء . هنالك نصف اجاويد يضعون تحت عمائهم كوفية حتى اكتافهم .. وهنالك الجهال الذين يلبسون الكوفية والعقال ويظلون منتصبين على الاقدام [٢] في الاجتماعات الدينية في اطراف المجلس على بعد من المكان المقدس [٣] . وهم كسائر اشياع علي يعتقدون

[١] لا وراثة في الالقاب الدينية . غير ان الاصطلاح جعل عائلة شيخ العقل احق بهذه المشيخة اذا صلح الخلف وكان اهلاً لها . وهذه هي الرتبة الوحيدة التي جرت على سنة الانتقال العائلي .

[٢] لا يوجد نصف اجاويد وليست الكوفية علامة فارقة . ثم ان الجهال لا يظلون منتصبين ولا هم يحضرون الصلاة بل يحضرون المجالس ساعة الوعظ والارشاد ويخرجون عند ابتداء الصلاة .

[٣] لا يوجد في معابد الدروز مكان خاص مقدس وهم يسمون المعبد « مجلساً » فلا زخرف فيه ولا رسوم ولا رموز بل مقاعد عادية .

التقمص .. فمتى مات احدهم لا يقولون مات بل « تقمص » .
ومتى تمخضت احدى النساء بصعوبة فليست المرأة في رأيهم
هي التي تتوجع بل احد المائتين (كذا) المجهولين في حالة
النزع ببطء في احد الامكنة وقد تأخرت روحه عن التقمص
في الجنين المولود . لذلك لا يوجد مقابر في هذا الجبل . لماذا
الاهتمام بالجسد ؟ ذلك الوعاء المسكون برهة !. ان هو سجن
الروح وعندما تخرج الروح رمي بالجثة اينما كان [١]

هذه هي الديانة الوحيدة التي على ظني لا تقبل اشياعاً جدداً.
فعند الدروز ان عددهم محصور ، وعند انتهاء الزمان يكون هو
هو . لانه كما يقولون (انكسر القلم وجف المداد وطوي
الكتاب) ولا يطيقون تزوج نسائهم بالخوارج فيحرصون
عليهن الحرص كل الحرص . .

---

[١] لا أحسب الكاتب الخائل يفرق بين الحلول والرجعة والتناسخ والتقمص والمسخ الخ .. وهو فيما قال عن المخاض يردد اقوال المخرفين . هذا وان الدروز يقيمون للروح وزناً اكثر من الجسد ويعتبرون الجسد مصفاة للروح . وأي دين لا يفعل ذلك الا اذا كان ناقصاً . ولكنهم يكرمون الجثة اتباعاً للتقاليد ويدفنونها في مقابر مخصوصة باحترام بعد الصلاة عليها الصلاة الاسلامية . الا انهم لا يبتنون الحجرات ولا يقيمون التماثيل والاصنام فوق الاجداث ومنهم من يلحد الموتى لحداً .

(ثم يتكلم عن الخرافات — وهي موجودة عند كل شعب. وينكر الصداقة التي عبر عليها الانتداب الى جبل الدروز بشخص القومندان ترانكا (لا بجنود احتلال) الذي نزل ضيفاً على الامير سليم ثلاثة عشر يوماً هو وحاشيته بعد تشكيل الحكومة. ويقول:

« وقد ظنوا في جميع انحاء الجبل مؤخراً ان ذلك الوقت قد قرب. فان فجائع الحرب التي ارهقت الشرق [١] والغرب كانت بشائر للعقال... فقد كان يخيل اليهم مراراً ان جيش الصين الكبير خرج من السور الفولاذي. ويمكني ان اتصور مقدار خيبتهم بعد الهدنة ان يروا عوضاً عن القادة الخمس واتباعهم الخياليين صديق القومندان ترانكا الذي بقبضة من جنوده ثبت النظام الامثل في هذا الجبل الخيالي الذي لم يقو الاتراك على حكمه منذ عشرة قرون [٢] »

---

[١] ماعدا الدروز

[٢] اشرنا الى فساد مزاعمه ونشير اخيراً الى (قرونه العشرة) في صحة التاريخ فان الدروز لم يحلوا في الجبل قبل مئتين وخمسين سنة.

القسم الثالث

إمارة الجبل

الباب الاول

—١—

الامير

في قاعة مفروشة بالطنافس حافلة بالمساند لاتكاء الجلوس ، يتصاعد البخار من أباريق القهوة على النار في وسطها ، وتهب نسمات الربيع من نافذتها حاملة انفاس الشيح والأقاحي والقيصوم ، وتتطاير في أفقها خراجة ولاجة أسراب السنونو وهي تزقزق مروعة متطايرة حول عش بنته احداها في زاوية المكان .

فى صدر تلك القاعة المفضية الى رواق متصل بجميع غرف الطبقة العليا ـــ من البناء الذي تشهد رخامته البارزة في الحائط الخارجي بان بناته هم الاتراك ـــ جلس شاب في مقتبل العمر مهيب الطلعة وقورها تلفه عباءة موشعة مزركشة .

وبعد ان افرغ صبابة الفنجان رشفاً القاه في يد الساقي ملتفتاً الى الجالس عن يساره وقال متمماً : ـــ

ـــ ... عبد القادر ، الاسد السجين ، يقف امام نبوليون الثالث مفلول شباة السيف . عبد القادر الامير المغربي جد صديقي الأمير سعيد !.. الرأي يا أخي الرأي ! ماذا السيف في جنب المدفع ؟ وماذا ستون الفاً ازاء ملايين ؟ وماذا صغار الاحلام عند جهابذة العلم ؟ السيف في غمده ابعث للروع . فيا ليت عبد القادر أبقاه مغمداً . فماذا بعد تجريده غير غالب ومغلوب ؟ . لا تخف الافرنسي في السلم فهو جواد . هاك معاهدتنا . هاك برنامج استقلالنا . الرأي قبل شجاعة الشجعان .

وما لا يدرك كله لا يترك جله ... »

ذلك المتكلم الجالس كان الامير سليم الاطرش وقد جالسه نفر من مؤسسي حكومته . وكانت تلك الحكومة في مهدها اشبه بدار الزعيم . فالجلوس يجلسون على الطنافس مرتفقين او متوسدين الوسائد والمساند . والامير ورجاله ينظرون في امور الحكومة الفتية . وهو يقيم في الدار نفسها فيفد المتخاصمون عليه فيها كما كانوا يفدون عليه في دار زعامته ، فينصفهم انصاف «الحكم الترضى حكومته» . ولا غرو فانه قبل ان يستلم مقاليد الحكم كان زعيما حاكماً يرجع اليه في معضلات الامور .

ـــ ١ ـــ

وفيما كان الامير الشاب يتكلم دخل عليه القاعة رجل من (الرشيده) اسمه طرودي سجاع يطالبه بحصته في فرس كانت عند الامير على اصطلاحهم في المشاركة ، فانكر عليه الامير حقه وقال له قدم دعواك

الى المحكمة . فاستنكر الرجل ذلك واحجم ولكنه ما لبث ان اذعن واستقاد لما ادرك مآرب الامير ، فان الامير كان يلاحظ رغبة الناس عن اللجوء الى المحاكم وامتناعهم عن الحضور مطلوبين اليها واستمساكهم بطريقتهم العشائرية ، فعول على تذليل هذه الصعوبة بان يكون اول من يقف امام المحكمة ، واحتال على اغراء الرجل والمحكمة معاً . فاستدعي واياه اليها . فوقف ازاء (خصمه) ، وشرع يجيب على اسئلة الرئيس عما يثبت الحق عليه حتى ثبت . وحكم عليه بتأدية الحق الى طرودي فاداه . واخذ القوم على اثر ذلك يتحدثون بهذه القصة في مجالسهم فهان على زعمائهم كما هان على عامتهم تلبية دعوة المحاكم عند الاقتضاء . وساد النظام وتم له من امر البلاد ما يريد .

نروي هذه الحادثة واشباهها ليقف القارئ على حال الجبل في بدء استقلاله وكيف كان الامير يشيد ذلك الاستقلال ويعلم الناس امثولاته الرائعة بادئاً بنفسه .

— ٢ —

وكان الزعماء يستأثرون احياناً ويهضمون حق الضعيف ولا رادع ولا وازع . وهي بقية عزة قديمة وصولة وبطش ، وعلم الامير ان العدل اساس الاحكام وان المساواة ركن النظام ، فاخذ يهدم بيده الحوائل والحواجز بين الطبقات .

جاءه يوماً رجل مسيحي — ولم يكن المسيحيون في الجبل على قلتهم مضطهدين قط — وشكى اليه امره قائلا يا أمير لقد ضربني عمك حمد (خلف الامير الحالي) . فأمر الامير قائد الدرك (توفيق بك الاطرش يومذاك) باحضار عمه وقد نتح في وجهه باب امثولة جديدة . فلما أحضر اوعز بايداعه السجن على رغم ارادة القائد قائلا : « السجون للمذنبين لا للفقراء . ويجب ان يدخلها الزعيم والصعلوك عند الاستحقاق . نحن لا نعرف تجاه الحق طبقات في المجرمين بل درجات في الجرائم، ولنبدأ بانفسنا يهن علينا تنفيذ القانون في غيرنا . »

ثم استدعى الامير حمداً ونزع سلاحه وادخله السجن حتى اسقط المدّعي دعواه .

— ٣ —

وجاء فقير يوماً يروم الدخول على الامير لبث شكواه فصده الحاجب ، وحانت من الامير التفاتة الى الباب فلمحه وسمع الحوار بينهما فانتهر حاجبه وسمح للفقير بالدخول واخذ يسمع قصته باهتمام وهو يؤانسه ويلاطفه .

ودخل أحد رؤساء دوائره ، فلما بصر بالرجل قال « ياسمو الامير . مثل هذا لا يحق له ان يجالسك » .
فاجاب الامير قائلا : « هذا مالا اريد سماعه . فاننا إن لم نفتح ابوابنا للفقراء المساكين ونسمع شكواهم بانفسنا ، تهضم حقوقهم وتكثر الرشوة للمتوسطين بيننا وبينهم . وليعلم الجميع ان باب غرفتي مفتوح للفقير قبل الوجيه . اننا لم نوجد على هذه الطنافس من اجل الرؤساء والوجهاء فحسب ، بل من اجل الجميع بلا استثناء . »

هكذا شيد الامير حكومته . ولو شئنا ان نصوره للقاريء لوجب ان نذكر كل كلمة من كلمات مجالسه وكل حركة من حركاته الدالة على الاباء والدماثة والعدل والكرم ورقة حواشي الطبع .

انه نابغة الزعماء وفذهم . بل انه نسيج وحده وعصامي عصره . وليس في الزعماء من كان احب منه الى قلوب الناس . هو امير بعمله لا بكبريائه وشموخه واعتداده . ويا خجلة الزعامة من بعده . لكم آخذت نفسي المتمردة على الزعامة وانا اكرم زعامته واحترم جلالة قدرها . إذ ليست هي التي اجلته في نظري بل عصاميته .

ولد الامير في مطلع سنة ١٨٩٣

وتوفي في ١٥ ايلول سنة ١٩٢٣

فعاش احدى وثلاثين سنة في نهايتها هصر الموت به غصناً رطيباً واخترمه في ميعة الصبا وشرخ الشباب .

ربي في دار عري ـــ دار الزعامة ـــ خاملاً

منصرفاً الى حقير الاعمال حتى توفي الزعيم يحيى الاطرش فوقع اختيار الدروز عليه. فاخذ نجمه في السعود يسطع في الآفاق، ونبه ذكره وتحدث به الركبان فى كل حدب وصوب. فلقد رأوا ذلك الفتى رجل حزم وعزم ودعة وجود. فان خموله السابق وضيعته فى داره شذبا من اخلاقه وصفياها من شوائب الكبر واكدار العتو.

وكان أشياخ اسرته كنسيب بك وعبد الغفار باشا يحدبون عليه ويرأمون، الى ان تولى امارة الجبل. ولكنه ماوصل الى هذه الامارة الا بعد ان مهد السبيل اليها باعماله المجيدة.

فن الاعمال التي تدل على كرمه ورقته انه لما اغار دروز (المقرن) الشمالي على قرى الشركس وفرضت الحكومة تعويضاً قدره الفا مد حنطة تبرع بها الامير من غلاله عن ذلك المقرن الفقير.

ومنها توزيعه الحنطة والمال في الحرب العامة على

الفقراء في دمشق وعلى اللاجئين الى داره في الجبل . فقد كان يصب لهم السمن بنفسه على (المناسف) ويطيب خواطرهم . وقد أخبر ليلة وهو على العشاء ان عائلة جائعة مرت امام داره تلتمس الطعام والمأوى . فرفع يده عن الطعام حالفاً الا يعود الى تناوله حتى يؤتى بتلك العائلة . ففتش عنها الخدم حتى وجدوها نائمة طاوية على احد البيادر فجاؤوا بها .

ومن الاعمال الدالة على صفحه ونجدته ومروءته حسمه للنزاع بين الحوارنة والحكومة التركية في حادثة نوى حيث شب القتال . واستصداره العفو عن ابن مطاق المذيب شيخ تلك القرية . وحسمه النزاع ثانية بين اهالي بصرى الثائرين وقد كاد محمد جمال باشا (الصغير) يقضي عليهم بحملته . وقيامه بضيافة الحملة في عقر دارهم من مواشيه وغلاله الى ان عادت الى دمشق . وذلك على رغم العداوة المستحكمة بين اهالي بصرى والدروز . ولما قدّم له جمال باشا الفي ليرة عثمانية لانفاقها

على حاشيته واتباعه ردها اعانة للجيش قائلاً (انني لا اطلب سوى رعاية قومي) .

ومنها انه لما تفشى الهواء الاصفر في الجبل واستشرى خرج الامير الى فناء داره فرأى رجلاً ، اصابه الداء ، مبطوحاً على حر وجهه والخدم يبتعدون عنه . فقام بنفسه متقدماً إليه ، والرجل يقيء وينزع ، واخذ يعالجه حتى قضى ، فغسله وكفنه وامر بدفنه .

ومنها مالا يستوعبه هذا الكتاب من المآثر والمحامد وطيب الاحدوثة .

— ٢ —

اسرته

لا نستطيع ان نفهم رجلاً من الرجال تمام الفهم قبل أن نعلم الشيء الكافي عن (محيطه) وبيئته . ولقد اتينا على ذكر المحيط الذي نشأ فيه الامير وبقي علينا ان نذكر شيئاً عن اسرته التي صاغ هو الحلقة الكبرى من سلسلة امجادها .

آل الاطرش هم أخلاف الحمدانيين على الجبل .
نذكرهم منذ اصبحوا زعماء في عهد اسمعيل جدّ الفرع الاسمعيلي . في عهده قضى ابنه ابراهيم باشا على زعامة الحمدانيين واستولى على السويداء واصبح زعيم الجبل (وقائم مقامه) بعد موت والده . وكانت ثورة العامة وبطلها شبلي . ثم اصبح شبلي زعيم الزعماء او شيخ المشايخ . وخلفه يحيى فسليم ابن محمود ومحمود هو ابن شبلي واخو حمد ، وكان فتى متعلماً ذكيّ الفؤاد كاخيه.

وآل الاطرش قادة الدروز في كثير من حروبهم وكم أثارت اشعار شبلي من فتنة وهاجت من نفس وشبت من حرب . فكيف نمر بالقارئ في كتابنا هذا دون ان نسمعه بضعة مقاطع من زجله الحماسي ليشرف منها على روح الشاعر وقومه ، وشبلي زعيم الادب والنسب وعلى هاتين الميزتين كان يعوّل الزعيم في قيادة قومه .

❀ ❀ ❀

شعر شبلي

كان شبلي شاعراً لا ينزه احد من الزجليين . ولكن ليست جودة شعره هي مايدعونا الى الاهتمام به ؛ بل تأثير ذلك الشعر في قومه وشيوعه بينهم وتغنيهم به في حلهم وترحالهم ، واني لا ذكر ترنحهم نشاوى في مجالسهم اذ يغنيهم احد المنشدين شعراً من أشعار شبلي على نغمات الرباب . فاذا كان حماسياً قلقت بهم المقاعد وأقضت . واذا كان تشبيبياً تمايلت الرؤوس وتسارعت الأنفاس ، واذا كان في التوجع والشكوى سكبت الدموع وهبت الزفرات .

وقد نظم اكثر منظوماته في منفاه (الاناضول) . فكان يبعث بها الى عشيرته فيهيج هائجها ويموج مائجها . فليس فضولاً اثباتنا مقاطع منها في هذا الكتاب وهي التي أثارت حروباً وأشنت غارات . بل انها هي التي هذبت من خشونتهم ونوّرت من اذهانهم . وليس عندهم من الآثار الادبية شيء سواها يستحق الذكر .

وها نحن أولاء نروي بضعة ابيات مختارة متقطعة من بضع قصائد ، ورب قصيدة انافت على مئتي بيت :

ننبه القاريء الى اصول قراءة الزجل فالهاء متى كانت ضميراً متصلاً تلفظ واواً ساكنة وتكتب كذلك احياناً او تلفظ هاء ساكنة كتاء التأنيث مع فتح ماقبلها . كما ان اواخر الكلم يغلب لفظها ساكنة واوائلها احيانا . والزجل البدوي له قراءة خاصة فخمة كأن تقلل من تحريك الشفتين جهدك وتعتمد على نبرات الصوت وخروجه من الصدر شديداً . وأن تلفظ القاف جيما مصرية مفخمة . والكاف احياناً كتاء ساكنة فشين . اما الجيم البدوية فمعروفة .

قال من اخلاقيته الكبرى :

لاشك درب الكذب عار على الفتى
من خان حكيو بالرجال يخيس
وصى النبي بالجار من دور آدم
وحيى كلام الغانمين نفيس
عرض الفتى مثل القزاز اذا انشعر
فاحرص على عرضك من التدنيس
اياك سيفك ان يفارق وسادتك
وخليك فرز من الرجال حريس
ترى عدوك ما يخلي عداوته

بالليل يمشي وبالنهار ينيس

خيار الفتى عزام جزام على الصبى

غفار زلات الصديق انيس

والله يحصي على الخلايق عمالهم

ما ظن ميزان الحساب يخيس

لو كنت تملك مية مليون من ذهب

لابد تسكن في لحود رميس

من آمن الاتراك يغدي مثالنا   بالليل يذرع وبالنهار يقيس

• • •

وقال من قصيدة يستثير بها اخاه يحيى (ابا حسن) :

حنا وقعنا وقعة الحر بشباك

نطلب من الله يبدل الشين بالهون

يا بو حسن من يوم حنا تركناك

وحياة ربي خالق العال والدون

مايوم الا هاجس القلب يدعاك

بلكي الليالي البيض ياخي يلفون

ياخي من حمر الطرابيش حذراك

لابد من عقب العطاوي [١] يبوقون

لو يفرشو لك جوخ ماهود اياك

ترى الشوك خير من الفراش المدون

---

[١] العطاوي التوادع (الهدنة) . والبوق الإخلاف .

ومن قوله في الحماسة :

وصاحوا عليهم وانطرب كل سكران

وقفوا مثل غنم حداه الشمالي

من فعل ربع ، ينطح الضد بطعان

صلفين يوم الهوش يوم القتالي

...

ومن وصفه للترك :

مثل الأفاعي لينات الملاميس وسم الغدر بنيابهم كامياتي

حلوين يصف الحكي والتماليس مثل السراب اللي براه الصحاتي

وقال في المدح والجناس :

نوخوا في ربعة الشيخ العنيد

ابي فندي سيد من ركب الجواد

مطلق الكفين لو فان البليد

حاتمي الخلق من طبعه جواد

صاحب الشوفات والرأي السديد

كهف للمنضام من خاص الجواد [١]

مشبع المعتام صباب الجميد [٢]

فوق حيل ورز للجوعان زاد

[١] الأجواد ، [٢] السمن الجامد .

قال المثل من قبل من حكم الوليد
مشتراة الحر بالحسنى سداد

ومن تلهفه :

بلغ سلامي للمحبين كلهم — وعن وجد قلبي للجميع شراح
ياحيف ثم الحيف ياولادخالنا — ياخسارتي وبا قلة الارباح
يا جمرة ماكان يطفا لهيبها — يا أدمعاً فوق الخدود سحاح
ابكي عليهم دم من زود حرتي — ماظنتي مثلي الرعابي ناح
ولا ظنتي ناحت حمامه عا ولفها — مثلي ولا الذيب المفارق جاح [١]
ياحيف عا تلك البدور الكوامل — ياحيف عا تلك الغصون رماح
ياحيف عاتلك الفهود البواسل — ياما الهم بالمعركات صياح
ياحيف عاتلك السباع الكواسر — من مقطع اقسى من الصماح [٢]
ياقلب من مر الزمان الذي عدا — علينا شراب من الصديد قداح
الله يخون الدهر ما ابرد سوالفه — يسقيك من عقب الزلال محاح [٣]
ماظنتي من دور حوا وآدم — فيها رجل صاحب شيم مرتاح
ماغيرور ع وا ترك الامر وانعظ — واللي ترك كل الامور ارتاح

• • •

ومن قصيدة تنيف على مئتي بيت :

هذولاك مرتاحين من داعي الهوى
هنيئاً لنفس غامضات عيونها

[١] شرد وتاه . [٢] ارض صخرية قاسية . [٣] وحل .

لأن عوام الناس يضني مراسهم
اذا ماحداهم خوف ماورّعونها [١]

اذا ماحداهم خوف ما ينظروا العمى
مثل شاربي الصهبا غشاهم جنونها

ايام منهم امن ما خالطوا رهب
وايام منهم خوف تهمي مزونها

ماحيلة اللي مثانا ذاق طعمهم
وبعد الصفا الايام حنظل سقونها

فصبراً جميل الصبر احلا من العسل
عسى الله اهل الظلم يخلف ظنونها

ايا راكباً من عندنا هيزعية
ومن ساس هجناً للسرى ضمرونها

اوصل كلامي وبلغ القول (مصطفى)
ومضمون قافي حروتي ينقدونها

قلو العجايب يا ابن عمي الذى جرت
علينا ؛ عسى المولى يفرّج شجونها

وشاخوا بها الغسال [٢] لما دعونها
جيفه وهوّام الضحى ينهشونها

وصارت وقايع دم شنعه مهوله

[١] زجروها. [٢] الغسال الارذال ، ولما هنا بمعنى حتى

تشيب طفالا بالمهد يرضعونها

داسوه خيل الضد في معمع الوغى

تبكي عليه البيض تذرف عيونها

وصارت ديار العز ميدان للعدى

من عقب ماهي مانعات حصونها

...

ومن قوله في الشكوي :

عفا الله عن قلب خذ الهم قسمة

ونفس ابت عن مطلب الناس زاهده

وطاح القضا فيها وشطط مزارها

على بعد شاسع راع قلبي فدافده

وزهقت على فقد المحبين وازوت

وما عاد غير الموت عيني تراصده

اقول لها يانفس قرين واهجعي

ترى الله باب الرحمه من مرافده

ترى الله لازم يفرج الهم والشقا

ايا نفس صبراً والقدر من يعانده

عيوني طول الليل ماتألف الكرى

ولو مهدوا لي فرشها والوسايده

كأني على جمر الغضاء من الجفا
اراعي الثريا والقمر والفراقده
ودائي من الهجران لاشك قاتلي
وعز الفرج والظن خابت مواعده
وأشفت على جرف الهلاك نفوسنا
وباب الفرج الفين رجال راصده
ألا ياحمام الرسل خذ لي تحيتي
مرقومة بالخط تحزن قصايده
الى وطن موروث عالغيظ والرضى
وحب الوطن ماحي ينكر فوايده
ايا دار وين الكيف والعز والرخا
وعوج المناسف فوقها السمن جامده
ايا دار وين الانس والصفو للملا
واين الذي كان الرفاقه جنايده
فردت علي الدار تبكي من النوى
وتقسم بدين البعد ماهو برايده
لو خيروني بالخاليق كلها
مايوم عن حب المحبين حايده

واختم كلامي بالصلاة على النبي
المصطفى اللي يقصدوه النجايده

❀❀❀

زجلية اسعد نصار

نقتطف منها عـدة ابيات . وقد بعث بها للأمير فندي طيار شيخ عرب (ولد علي) من بطون عنزة التي غزت اطراف الجبل وخذلت ثم اراد فنـدي اعادة الكرة وهي من الزجليات التي كثر التغني بها :

يا راكباً من هزبر العيس طيار
يسبق هبوب الريح عنـد ان نهج يه [١]
إن زرت ديرة مشـرق يمنة ويسار
بلغ كتابي لليفهم معانيه
ادخل على فنـدي اليكنى (بطيار)
شيخ القبـايل وربعه هرّجت يه [٢]
مَ تذكر يوم (سردك) [٣] والذي صار
ويوم (الجنينه) [٣] يافنـدي انت ناسيه ؟
يوم انتخى (زحيمه) [٤] علينـا وغار
جته صوابه [٥] ومهره ما رجع يـه

---

[١] يه اي به أو فيه . [٢] حدثت عنه . [٣] قريتان في القسم الشرقي من الجبل . [٤] ابن اخت فندي . [٥] رصاصة صائبة .

ينـده عليك « يا خال يا حامي الجار »

ويريد بطل منكم ياشيخ يحميه

ماحـد منكم انتخى اليه وغار

سوق المنـايا وفاتت من مشـانيه

سوق المنايا له ساعات ودهار

غير الصميدع يا فنـدي ما يدانيه

وان كان يا فنـدي قاصد علينا الغار

اكرب حزام (الجريده) [١] ولا ترخيه

واسقها من لبان النوق وبكار وابقها ليوم نطلبك بيه

يا شيخ كبرت اللقمه تراها نار

زغر درابيك [٢] واشرب مي صافيه

طير البغي يا فنـدي باعلى الجو لو طار

تجي قواسـه من اعلى سموه ترميه

لا تحسب انا يا فنـدي من عرب سنجار

ولا من الترك هلي ما تعانوا بيه

حنا (بني معروف) تقري الجار لو جار

تقني المزند فتيلك ما نداريه [٣]

---

[١] اسم فرس فندي .

[٢] لقم الطعام تؤكل باليـد .

[٣] المزند بندقية تثار بالزناد والفتيل بالفتيلة .

يا شوق عيني لعطف الكحل لو طار

امو الحماسي وسته زلغطت بيه [١]

وسيوفنا الحدب تبري كل زنار [٢]

وحرابنا لو صدت بالدم نجليه



[١] اشارة الى البارود وتشبيه بالكحل . [٢] وسط

الباب الثاني

— ١ —

تآبين ومراثي

اقيمت بعد وفاة الامير حفلات تأبينية نخص بالذكر منها ثلاثاً : الاولى حفلة الدفن تكلم فيها مندوب عن المفوض السامي ، وآخر عن مندوب المفوض لدى حكومتي دمشق وجبل الدروز وهو القومندان ترنكا مستشار الجبل السابق ، والكبتن كربيه وكيل الحاكم اليوم ، وغيرهم . والثانية حفلة الاسبوع والثالثة الحفلة التذكارية الكبرى التي اقامها اعيان دمشق في حديقة قصر الامير في الصالحية وقد تكلم فيها السادة: المحامي ناصيف ابو زيد (رئيس الحفلة) ، الامير نسيب شهاب ، المحامي منصور عبد الصمد ، الشاعر حليم دموس ، مدير مخابرات الجبل سابقاً محمود حاطوم ، مدير

المعارف عبدالله النجار، طالب الحقوق فوزي الاطرش.

قال السيد محمود حاطوم في خطبته:

حدثني الامير يوماً قال:

« هذا عهد جديد دخلنا فيه، فسعي كل منا عائد على بلاده بالفخر، ولا ترقى الامم الا بابنائها البررة المخلصين الذين لا تعرف عزائمهم الوهن ولا انفسهم الغش والرياء ».

وقال:

« اودّ لو كان قومي كبيرهم وصغيرهم يلجون بابي يحاوروني محاورة الاكفاء في الدفاع عن حقوقهم لان الفرد على اصابة في الرأي واستعداد للخدمة الحقة معرض للوقوع في الخطأ احياناً »

ومما شهدته عياناً من الامير المرحوم هو انه دخل عليه يوماً احد العرب الرحل متسربلاً باخلاق بالية حافي القدمين ، وحياه بهذه الصورة: « كيف انت ياسليم »! فرد عليه التحية بلطف وبشاشة، فلم يكن

اعجاب الامير بصراحة البدوي بعد حديث نصف ساعة كانت تبدو على محياه في خلاله دلائل الفرح بقدر اعجابي به اذ قال « اتمنى لو كان افراد الامة كافة ينادون اولياء الامور باسمائهم دون استعمال الالقاب الضخمة و تصارحهم بالحقيقة وان جرحت » .

❁ ❁ ❁

ومن خطاب فوزي بك الاطرش بالافرنسية ما تعريبه .

« وما احسبني مضطراً ايها السادة الى تذكيركم بحسنات الامير اثناء الحرب الكونية . والوف الجائعين الذين انقذهم من الموت المحتم الأكيد ، والذين استطاعوا منكم متابعة السياسة في سورية خلال الحرب الكبرى يذكرون المقاومة التي جابه بها قيدنا العزيز جمال باشا والملجأ المنيع الذي مابرح يؤمن به حياة كل من رغبوا عن مصافاة الاتراك « المتألمنين » يومذاك .

ولقد اراد ان يضيف الى حياته المملوءة بالمبرات

اجمل درة حواها تاجه اللامع ، فجدد مع الحكومة الفرنسية تلك العلاقات التي يرجع تاريخها الى رسائل بعث بها نبوليون الاول (كذا) الى الامير اسماعيل الاطرش ، وعرف كيف يفهم بعض المفسدين ان صداقة فرنسا والدروز لم تكن بالامر العرضي وانما هي ضرورة من ضرورات شعب ارادها لنفسه واقتضاها تاريخه ..

اننا نرفع الى اصدقائنا الدمشقيين اصدق عواطفنا وشكرنا ، اذ لا يمكننا ان ننسى ابداً انهم هم الذين رغبوا في تمجيد ذكرى فقيدنا العزيز ... وان ما كنتم تشعرون به من الميل للامير سليم يعود بحق لخلفه الذي يعترف جبل الدروز بانه شيخ المشايخ والذي سيجتهد بمساعدة الحكومة الفرنسية ان يحافظ على علاقات الجوار الموطدة الى الأبد بيننا وبينها باتفاق رغائب الجميع ونزعاتهم وبوحدة اللغة والجنس »

❀❀❀

قصيدة السيد حليم دموس :

نعاه لي الناعي بلبنان باكيا فلاح لعيني الصبح كالليل داجيا
عزيز علينا ان نودع راحلاً عزيزاً على مر الزمان مواليا
اميراً صليب العود في حومة الوغى زعيماً كريماً باسم الثغر راضيا
ذكرناه ايام المجاعة والورى تشد الى حوران تطوي الفيافيا
فكم فك مسجوناً واشبع جائعاً وابهج محزونا وألبس عاريا
فوا أسفي والداء دب بجسمه فغادره في القصر كالليث ثاويا
وضاقت به الدنيا فنادى باهله : الي . فقد اذوى السقام شبابيا
وقال لهم : هيا الى جبل به نشأت وفيه قد تركت فؤاديا
بلادي لها في القلب اسمى كرامة فلا ابعد الرحمن عني بلاديا
خدمت بنيها لا طلاباً لشهرة ولا لمقام كان منذ الصبى ليا
ولكن لأقضي واجباً نحو موطني واسمو بقومي او ينالوا المعاليا
هنالك اعواني . هناك عشيرتي هنالك فرساني . هناك صحابيا
تضيق فجاج الارض دون خيولهم اذا اقبلوا نحوي وهزوا العواليا
فيالهف قلبي . أين ابطال أسرتي فان خيال الموت مر اماميا
واين رجالي . هل اموت ولا أرى قبيل مماتي في بلادي رجاليا ؟

❀❀❀

وساروا من الفيحاء حول اميرهم وركب المنايا يتبع الركب عاديا

وساروا به حتى تجلى امامه   ثرى وطن مازال كالروح غاليا
أجال على تلك المشارف نظرة   حوت عبراً قبل الردى ومعانيا
واغمض عينيه وودع قومه   وودع امجاداً له ومغانيا
وودع نفساً بين جنبيه حرةً   وغض شباب كان كالزهر زاهيا
وودع آمالا كباراً ونهضة   وودع عزاً بالمفاخر حاليا
فعاش كبيراً صادق الحب وافياً   ومات كبيراً صادق الحب وافيا

❋❋❋

سلاماً امير المجد والسيف والندى
ونم في ظلال الخلد جذلان هانيا
فذكرك فواح وفضلك مانأى
وان كنت عن ارض الاحبة نائيا

❋❋❋

قصيدة السيد عبدالله النجار :

روح الامير تكلمي   واجري البيان على فمي
أوحي الرثاء لشاعرٍ   عيّ القريحة مبكمِ
عقد النعي لسانه   وتفجع المتألم ...
قولي لوراد البلى   صرعى الردى المتحتم
كل وان طال المدى   رهن القضاء المبرم
ليس ابن انثى في الانا ـ   م من الردى بمسلم

اما الاسى فعلى فتى صلب القناة مقوّم
خاض الشدائد مقدماً فأصيب اكرم مقدم
ويح الحمام فانه وافاه غير متمم
وأتاه في شرخ الشبا ـ ب بوجهه المتجهم
فمشى الامير الى الحمام ـ بثغره المتبسم
فاذا الحياة هي القرى والضيف آخر مكرم
ماردّ سائله الحيا ـ ة وكان خير مقدم

***

روح الامير هو الردى في الناس أبلغ مفحم
عذراً لحبسة شاعر جمّ الكآبة مفعم
أودى عضال الداء منا ـ بالسري القشعم
أشفى لخنّ الى الحمى بمعرّقٍ من أعظم
وقضى فعلمنا الوفا ـ ء لموطنٍ متهدم
هل بعده ندبٌ يسير ـ بنهجه المتقدم

***

من يا غياثَ السائلينَ لمستغيثٍ معدم
من يا مقيل العاثرين لعاثر متظلم

من يا ابن غلب الذائدين لصارمٍ متثلم ؟
من ؟ يا مجير اللاجئين من الخطوب القحم
ما كان فيك حقيقة قد صار بعض توهم

***

يا آل أطرش كرّموا من كان خير مكرم
خطوا على آثاره مجداً بعيد تصرم
خلوا التخاذل واعقدوا لمنزهٍ لم يوصم
يبني كما بنت الجدود طراز عزٍّ معلم
ويلوح طالع سعده في كل ليلٍ مظلم
ياقبر رحب بالنزيل وتيه بضيفك وانعم
فلقد اشاح عن القصور وصد غير ميمم
وثراك تحسدك الضلوع على النزيل الاكرم
بدر هوى في تمه وكذاك مهوى الأنجم

***

وهنالك تآبين ومراثي كثيرة لا يتسع لها الكتاب. وليس القصد بما اثبتنا منها اظهار مكانة الامير. فان كلمة الفرنسي الصريح في صدر الكتاب شهادة وافية .

— ٢ —

غد الجبل

الغد في كل مكان وزمان سيد الناس . يقفون عليه اعمالهم ويقصرون آمالهم ، ويحذقون له كل علم وفن ، ثم يلقون اليه بكبيرة الغدايا ونضيج العشايا من جهود الايام وعنيات الليالي ، ويصعدون على اقدامه الأنفاس وما يبرح الغد مطمح ابصار الاجيال وقبلة امانيها حتى اتذوب وتتلاشى على افقه مع آخر شرارات الشفق الخابي .

فللغد ما يبتني البانون ويلد الوالدون وتزرع الزارع ويشرع الشارع ، وكل قبسة من قبسات الافكار وكل خلجة من خلجات الصدور انما هي لذلك السيد المطاع المتقنع بالغيب وما آتى الله علم غيبه احدا . على ان الناس في القديم كانوا يحاولون كشف القناع عن وجه الغد بالعرافة . وكانت العرافة في اعتقادهم

الهاماً، وهم لا يزالون. ولكن العرافة، وباطنها الاستنتاج والقياس وظاهرها التكهن والتخمين، صارت علما ودراسة مازال الغد باعتبارهما استمرار الزمان ونتائجه مقدمات الماضي ومتون الحاضر. فهو أثر من آثار الماضي وفرع من اصله . فما يفاجي احدا بشيء مفاجأة الا بنسبة غفلته وجهله . ولو انه أوتي ادراكا صحيحا ونظراً ثاقبا وكشف الله عن بصيرته، لعلم من امر الغد اشياء، ولعمري ذلك بعض النبوة .

معاذ الله ان ندعي علم الغيب او امكانه غرورا، وانما نقول باستطاعة الوقوف على جانب من ارتباط الغد بالامس والاستدلال بالاسباب على النتائج . وهذه الاستطاعة معول الكثيرين في نجاحهم . بل ان الوصول الى النتائج المرغوبة واتقاء النتائج المكروهة بتلافي اسبابها مطلب كل قوم متمدن راق . وكل لذة في عمل اليوم انما هي لذة امل بالغد . ففي ذمة الغد جهود الافراد والاقوام .

وها نحن اولاء نقف امام الغد متسائلين عما يكون من امر الجبل فيه ، عالمين ان سبعين الفاً لا يمكن ان يكون لهم من الشان فيه ما للشعوب الايدة الكبيرة لولا انهم اقاموا على ايدهم وبطشهم الدليل ، وتحصنوا في موقع طبيعي حصين ذي شأن في القومية الكبرى .

ان الجبل مستقل عن سائر المقاطعات الشامية . فهو جانب من جوانب الحقل الذي يعمل فيه الانتداب الفرنسي ، ولعله اقساها تربة واعقمها لقلة ما أصاب من الحضارة ونزارة ما نال من التمدين. وربما كان اختلافه عنها في التربية السياسية طيلة العهد التركي واعتزاله في العهد الفيصلي سبباً في رغبته عن الانضمام إليها، ناسياً ان الانتداب يساوي بينها جمعاء . وان اختلاف اسباب العيش فيه عنها في سائر البلاد ، واقليمه غير المشابه لاقليمها ولا سيما بموقعه الجغرافي ، وعجز فلاحيه ذوي الكفاف عن الخضوع لاحكامها ومكوسها ذاك العجز الذي وحد شعورهم بوجوب الخروج عليها كما فعلوا مع ابراهيم باشا المصري ومع ولاة

الاتراك ، جميع ذلك وما اليه من مشوقات انفصالهم لايمكن دوامه مع الاستقلال . اليس ان من مقومات الاستقلال في كل مصر تنويع اسباب العيش وتوحيد التربية السياسية ونشر العلم وتثبيت النظام وزيادة المكوس وتكاليف القيام به . أوليس ان حياة الفلاحة التي كانت اساس الرغبة فيه غير كافية للقيام به وانه لايمكن بقاؤها معه خالصة غير مشوبة ، حتى اذا عراها التبدل المحتوم تبدلت الرغبة مع تبدلها ؟ ثم اليس ايضاً ان في مجموع البلاد من لوازم الاستقلال مايغني الجبل عن توفير جميعها ـ لو استطاع ـ وحده مع الاحتفاظ بقسطه الزراعي والابقاء على حياة الفلاحة المخصوصة به ؟ بقي حب التسلط واستئثار الزعامة وهما لابقاء لهما مع الانتداب الذي يعمل على سحقهما لازالة الفوارق بين ابناء الامة الواحدة تحت ظل المساواة .

نظرة معي اذن الى هذا الاستقلال وخلوه اليوم من الشروط اللازمة له تحت الانتداب واهمها الرجال.

فالجبل استقل عن سائر المقاطعات الشامية وهو لا يستغني عن « الغرباء » من ابنائها ، واحسب انه كان يستغني لو لم يحدث فيه تشكيلات دولة ، فقد كان قائمقامية وهو لا يخلو ممن يقوم عليها . واراد الاستقلال هرباً من التكاليف التي تخضع لها المقاطعات المجاورة ، وهي لابد منها لتقويم استقلاله ولعله اراد تجنب نتائج الروح العدائية التي ابدتها الدولة الفيصلية للانتداب الفرنسي ، وتلك الدولة قد دالت والانتداب لا ينتقم . ورام زعماؤه الاحتفاظ بزعامتهم عن كثب ، واي زعامة تبقى مع الحضارة غير زعامة القلم والفكر ؟

ان الاستقلال يؤخذ لا يعطى . وليس له اقيسة مخصوصة يقاس بها حتى اذا بلغتها امة قيل باستحقاقها له فرب قطر مستقل كأنه دون قطر غير مستقل بمراحل من حيث الحضارة والرقي . ألا إن استحقاق امة للاستقلال هو شعورها بذلك الاستحقاق شعوراً عاماً واقناع العالم به . وأول خطوة نحوه هي غرس الايمان

به غرساً يثبت التضحية ويبعث على الاستماتة في سبيله وما من شأنه تكثير الاشياع والاتباع والمجاهرين. فالايمان بالاستقلال اقوى وسائل الدفاع عنه. واقتناع العالم بوجوبه اشد ما يزجر عنه الطامع فيه. وكلا الامرين لزومي للآخر. فكم من امة استوجبت بدفاعها عن استقلالها تأييد العالم له ومشايعته.

ثم ان لاقتناع العالم مؤثرات اخرى بحسب المواقع والاحوال. فهو بالنسبة الى مصر مثلا غيره بالنسبة الى نجد. وهو نحو بلد تابع الى دولة ضعيفة كتركيه غيره نحو بلد تابع لدولة قوية كبريطانيه.

فما هو غد الجبل يا ترى بعد ما قدمنا؟

ان الدولة التي نقيس استقلاله بها اليوم هي غير دولة الأمس ولو كانت منتدبة. وحاجته الى الأخذ عنها والطبع على غرارها اشد واقوى. زد عليها حاجته الى الرجال والايمان والتضحية وغير ذلك من المقومات والاسباب المفقودة. فهو على هذه الحال من

الافتقار لم يبق له من معول غير الوقت . ولكن الوقت كفيل بالتدمير كما انه كفيل بالتعمير . فان الجسم ينمو باندثار الخلايا وتجدد سواها على ان يغلب التجدد لا الاندثار .

فالوقت محور كل شيء كما علمنا «انشتين» .. ولا نقصد به استمرار الزمان مجرداً دون اقترانه بالعمل . إلا ان تقصير الوقت مطلب مهم جداً في كل شأن ، الا الحياة واللذة .. والجبل ابعد البلاد الشامية عن ادراكه بالرغم من سعي الانتداب الى دفعه للحاق بها . فهو يدربه على الحكم . والمدارس التي اسست فيه منذ سنة لاول مرة تربي رجال غده ، الا انه لا أثر للصناعات المهمة فيه لاو سبيل الى تقدم الزراعة الآن او تنشيط التجارة لقلة الاستهلاك وخلو الجبل من طريق تجاري . فتأمل ما اطول مسافة الخلق وابعده عن الاستقلال الحقيقي . وهو على ضيق نطاقه اذا انتشر فيه التعليم العالي يوماً ادى الى هجرة كبيرة كهجرة اللبنانيين نرى طلائعها اليوم .



رسم الآلة الزراعية

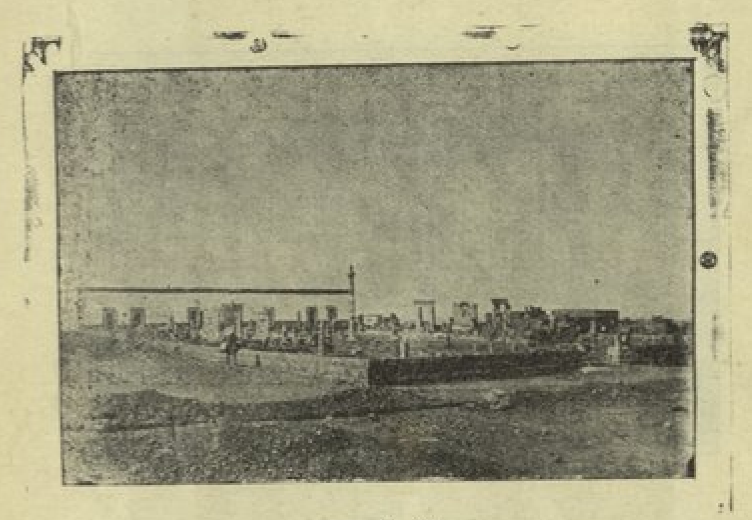
الآلة الزراعية الوحيدة التي استحضرها الأمير سليم لحرث املاكه وقد دشنها بنفسه كما هو ظاهر في الرسم . وقد تخربت وعز تصليحها .

شاء الجبل الاعتزال . فسيكون ذلك سبباً في تقليل شكواه من جيرانه ، ونزع الحزازات التي اوجدها التنافر الطائفي في امة واحدة ،ومؤدياً الى التصافي تحت ظل واحدمن الاشراف. ولاسيما ان للسياسة الواحدة تربية اجتماعية متشابهة في مناطق الانتداب . اما وجود استقلال حقيقي في الجبل فهو مالاجدوى منه ولو زين الغرور لنفر قليلين من سكانه انهم اهل للحكم والسيادة فان للحكم والسيادة بناء يشاد باحجار الاساس والجدران قبل حجر الزاوية .

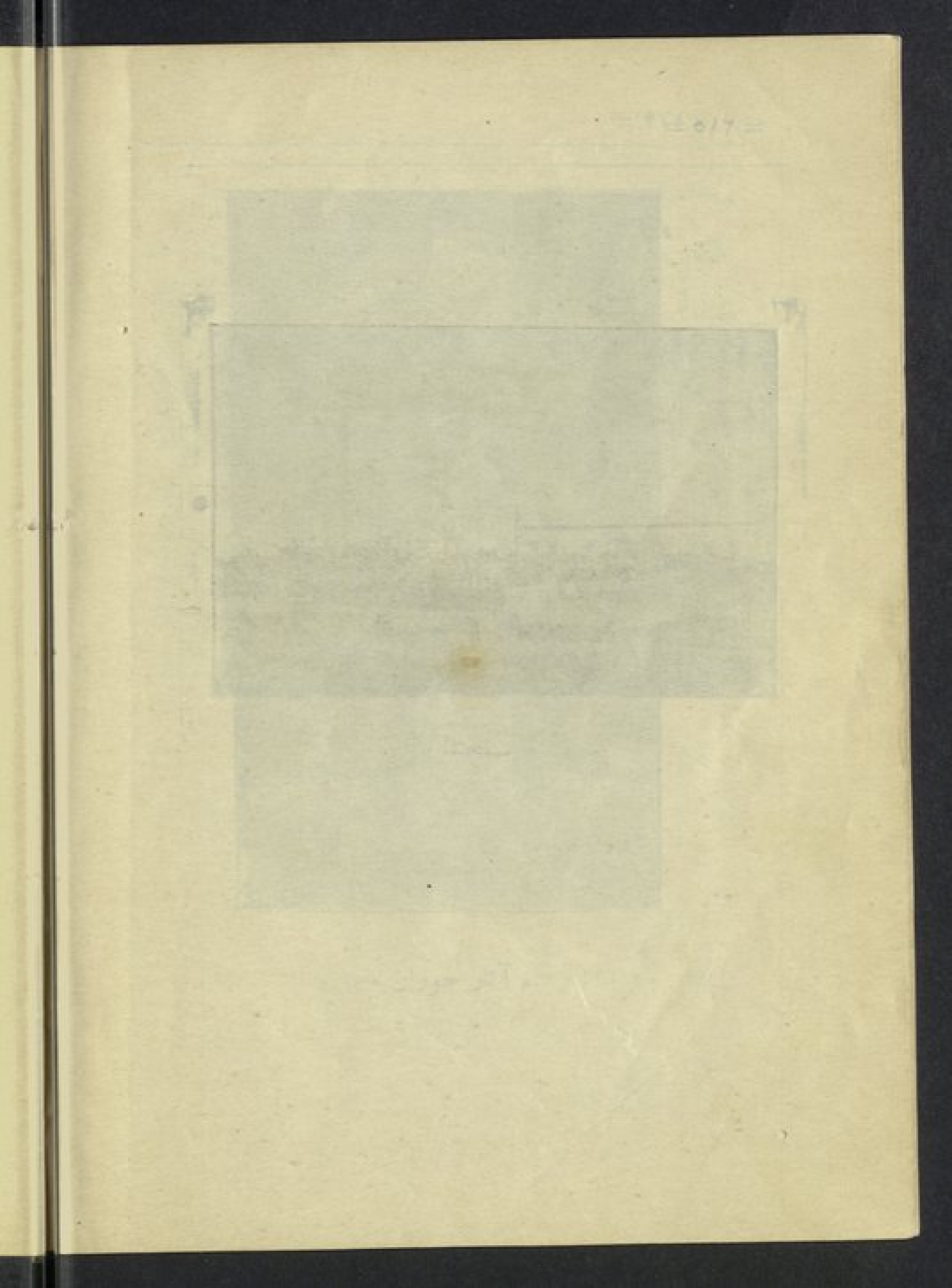


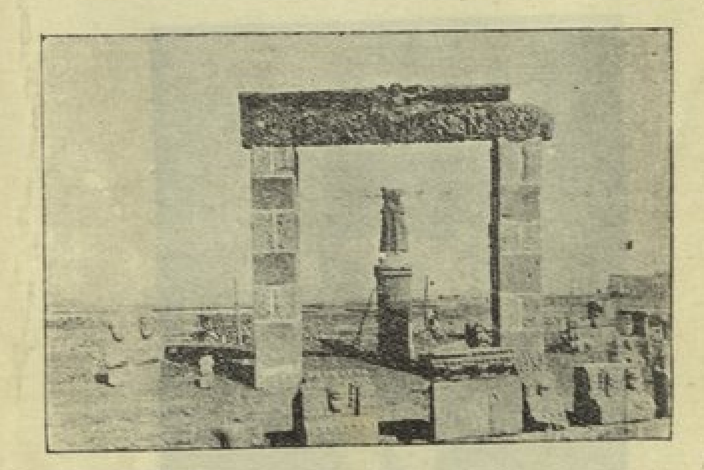


« آثار حوران »



« المتحف »





« قسم من المتحف »



ـــ عارف بك نكد ـــ

كلمة الختام

لعارف بك نكد
مفتش عدلية سورية

حضرة الصديق الفاضل

اعجبني مما اطلعتني عليه ، من كتابك (بنو معروف) ، ما فيه من الصراحة في القول ، والجهر بالحق ؛ وما ترمي اليه من تقريب مابين الافهام . وتأليف مابين القلوب في الامة الواحدة. ذلك بعد ان كان للجهل والسياسة جولات منكرات ، قطعت صلة الارحام ، بين طرق الاسلام

وخليق بك وانت تكتب في تاريخ هذه الطائفة ، وتتولى ادارة المعارف في جبلها ، ان تنظر في عاداتها ومصطلحاتها نظرة تحقيق رصين، ثم تعمل بعد ذلك — بما اوتيته من فضل واخلاص — على ابقاء الحميد وتقويته ، والقضاء على الذميم واستئصال شأفته .

وليس يخاف على مثلك ، ان لكل قوم خصائص ومميزات هي الركن الذي يقوم عليه كيانه ، وتتألف منه مفاخره وتاريخه .

والامة الرصينة هي التي لا تتبدل خصائصها ومميزاتها كل فترة من الدهر ، ولكنها تطورها جرياً مع الزمن وتبعاً للحاجة .

ولبني معروف ميزات اشتهروا بها ، في مقدمتها الكرم والشجاعة وما يتفرع عنهما من حفيظة وشمم واباء خلال ورثوها عن آبائهم العرب الخلص؛ فاصبح ذلك طابعاً لهم يتميزون به ، واصبح لا يذكر اسمهم الا تبادرت الى الذهن هذه الصفات .

فهل لك ان تعمل في مدارسك ومباحثاتك ، انت وسائر اخوانك ، على تقوية هذه الروح في ابناء قومنا ولا سيما النشء الجديد رجال المستقبل ؟ ولكن بعد ان يتطور ذلك الكرم ، وتلك الشجاعة ، على ما تقتضيه حالة الزمن الحاضر . حتى لايكون الكرم اسرافاً لاخير فيه ، والشجاعة تهوراً لامعنى له .

كان المال يحمد صاحبه ، ان هو بذله في ضيافة يمد سماطها للرائح والغادي ، او وليمة تبسط موائدها لذي سلطان او كبير . وقد دار الزمن دورته ، فعاد هذا الجود فضولاً لا يبقى معه اسم ، ولا يطيب ذكر ، الا اذا جاد المرء في سبيل وطن ، او علم ، او مصلحة عامة . ونعم العمل تعمله ان انت استطعت ان تغرس في النشء الجديد ، رغبة في هذا الجود المفيد ، حتى لايعضوا على سنة آبائهم ، في جود طويت صفحته ، وذهبت قيمته .

والشجاعة مظهر القوة . وقد بدا لبعض المخنثين ان يعدوا القوة اثراً من آثار التوحش والهمجية . ويقولو انها لا تجتمع

والحضارة في موطن واحد . فحذار ان تتسرب هـذه الآراء المغلوطة الى عقول القوم . فتفسد عليهم امرهم وتضيع لهم ميزتهم التي بها عرفوا وذكروا .

فالقوة كل شيء في هذا العالم . منذ كان والى زمن لا يستطيع العقل ان يدرك متى ينتهي . فعليك ان تبث في قلوبهم فكرة القوة التي لايعيش شعب اذا اضاعها . ولا تقوم حضارة امة اذا فقدتها . ولا تشاد دور العلم الا بها . ولا يتأيد حق ولا عدل الا في اكنافها .

ولكن الشجاعة اليوم ليست بالغارة تشن . ولا هي بالمرء يقتل اخاه او قريبه . او بالاعزل يهاجم المدفع ويسد فوهته بعمته (١) . ولكن الشجاعة اليوم : ان يعرف المرء حقه فلا ينزل عنه خوفا او رهباً . بل يمضي في طلابه . غير هياب ولا وكل . الى أن يناله او يقضي دونه . وان يثبت صاحب المبدأعلى مبدأه متى اعتقد صحته . فلا يرجعه عنه تهديد ولا وعيد . وان لايتردد امرؤ « سيم خطة ذل او خسف ان يقول لابمل‌ء فيه . »

فاذا حفظت هذه المميزات . وما يتفرع عنها مما الحنا اليه آنفاً فقد بقي لهذه الطائفة جانب مصون، وحرمة مرعية .

---

(١) اشارة الى حوادث وقعت في حروب الجبل مع الترك .

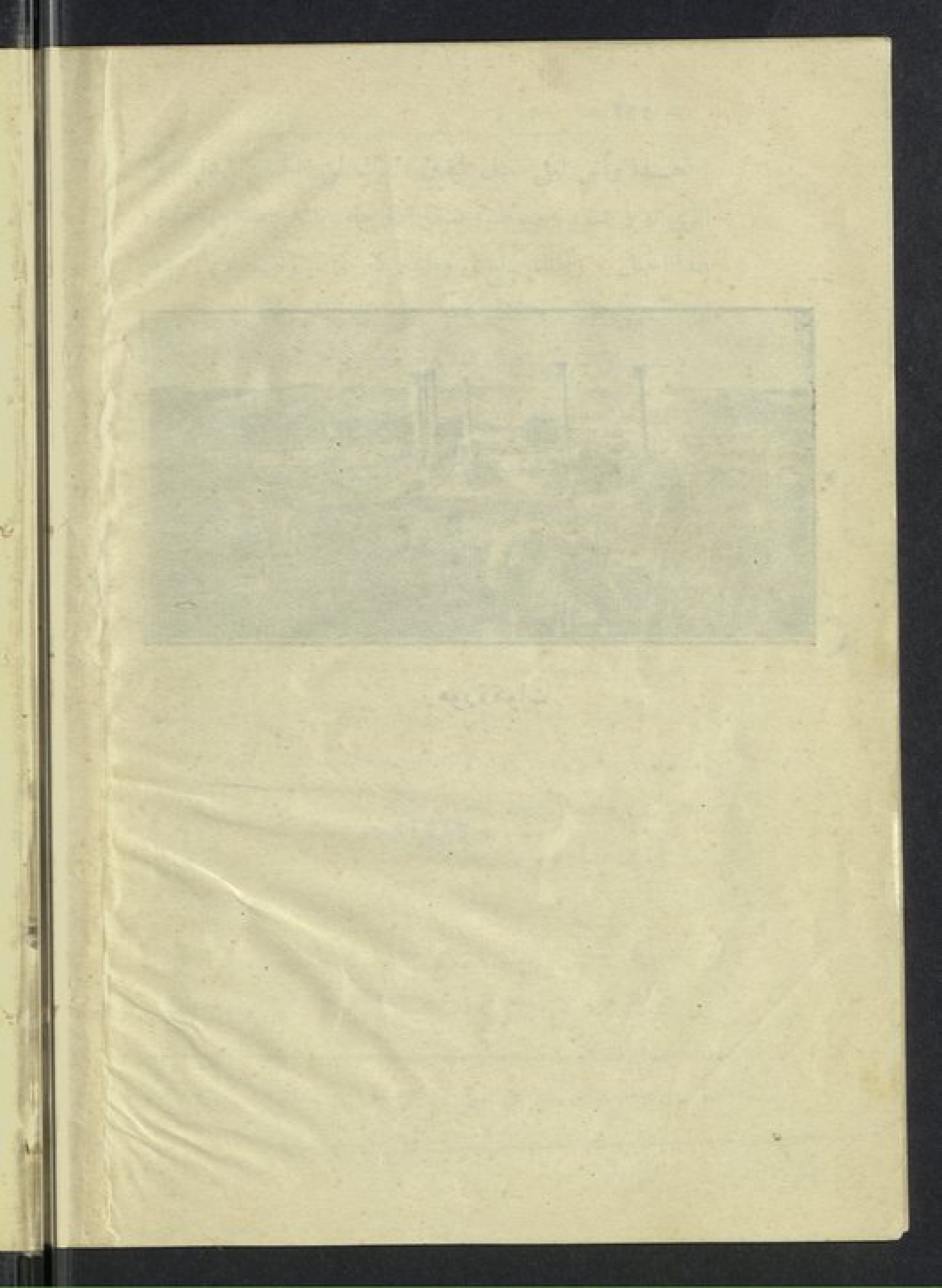
هــذا واني لعلى مثل اليقين ، انك لن تكتفي لهذا النشء الذي تدير شؤونه، بوطنية ضيقة الارجاء، تنتهي مطامحها بحدود هذا الجبل . ولكنك داع الى وطنية كبرى ، تؤلف بلاداً يصح ان تسمى وطنا ، وتنتظم شعباً يصح ان يسمى امة .

وعسى ان تتم مساعيك العلمية فينصرف ابناء الجبل الى العلم، بحيث يكون لهم في المستقبل القريب ما يحتاجون اليه من المتخصصين في العلوم التي تتطلبها حالة هــذا البلد . ويقتضيها الاستقلال الحق ، والسلام عليك .

عارف النكدي

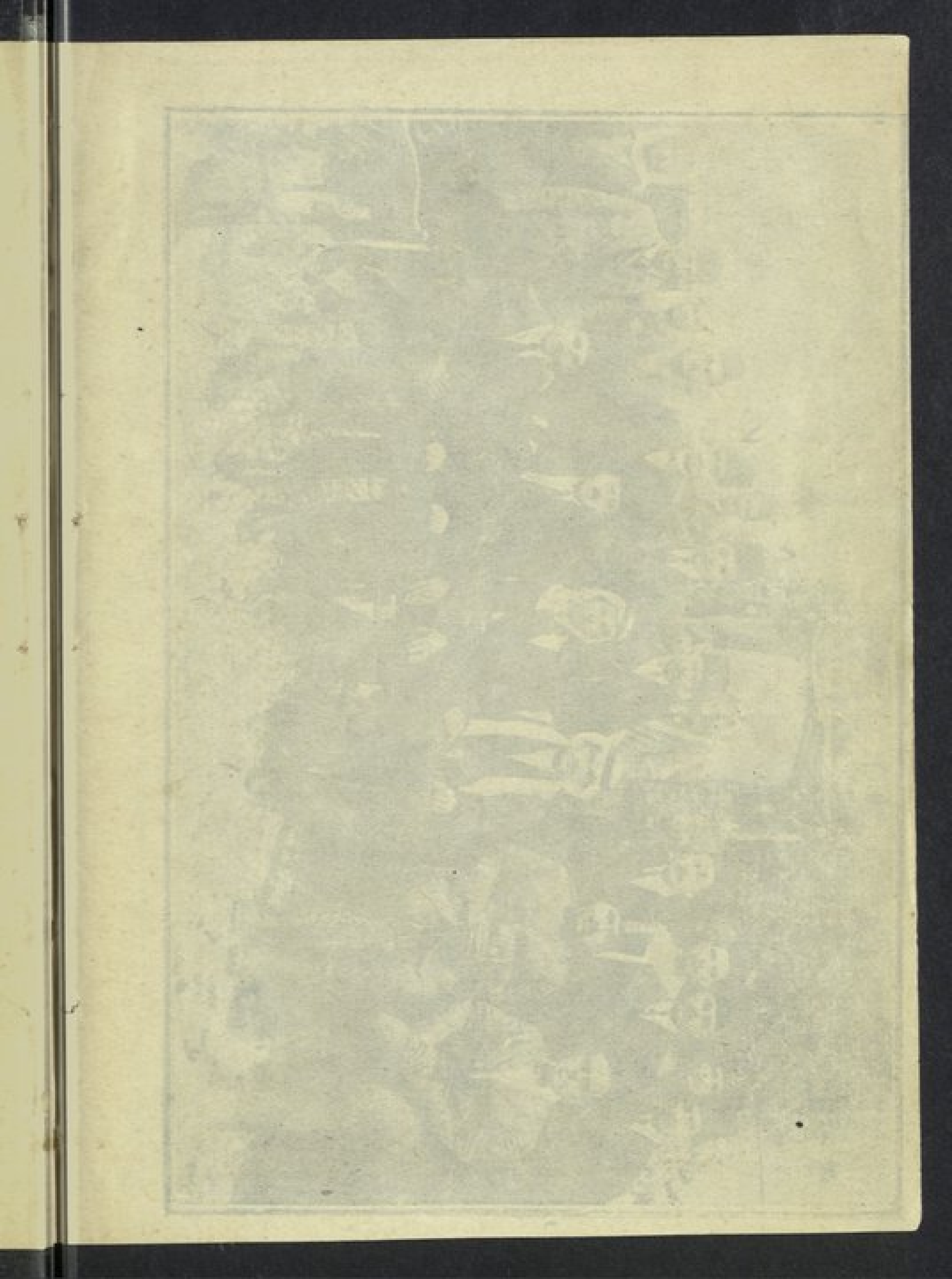


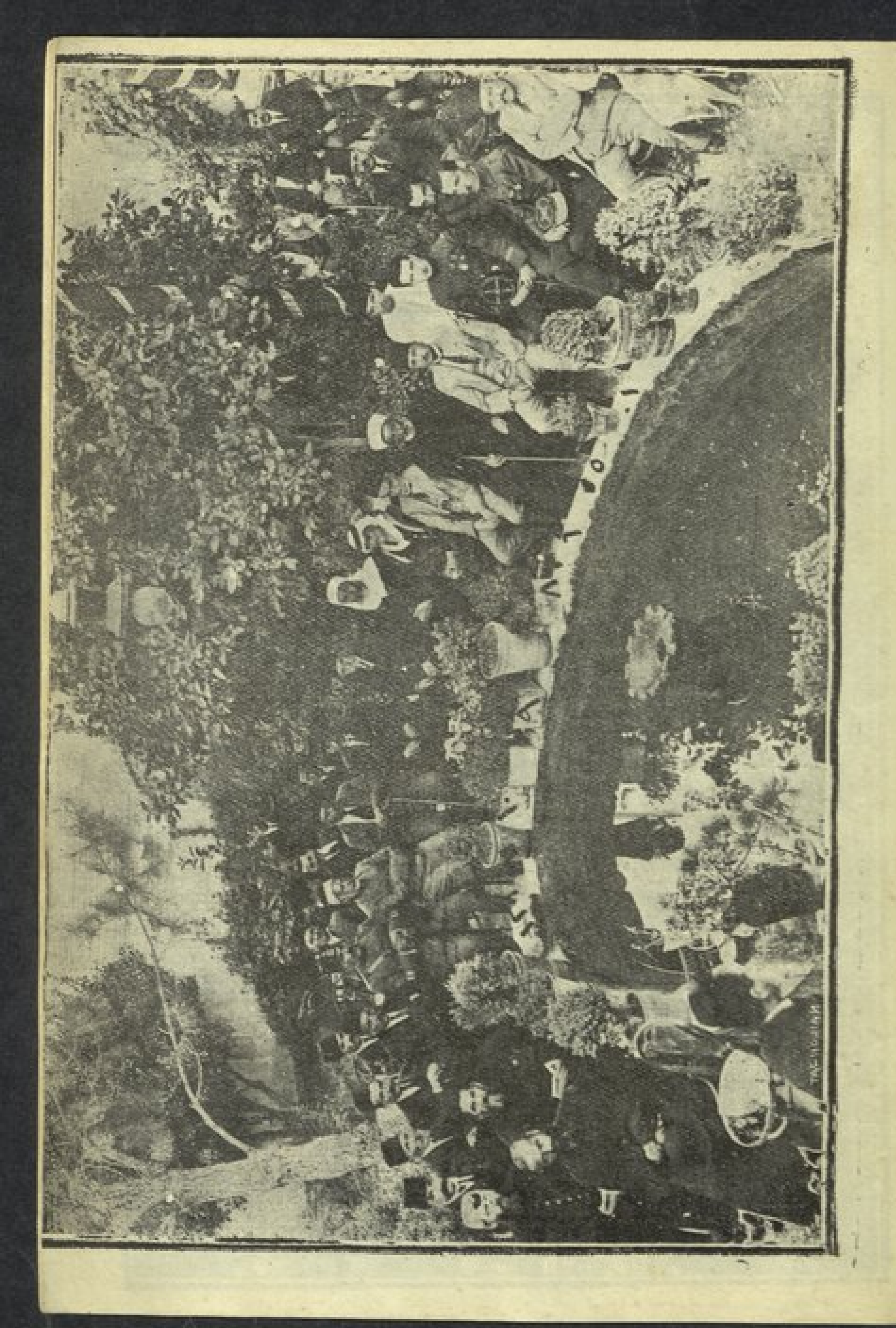
رهورة قنوات

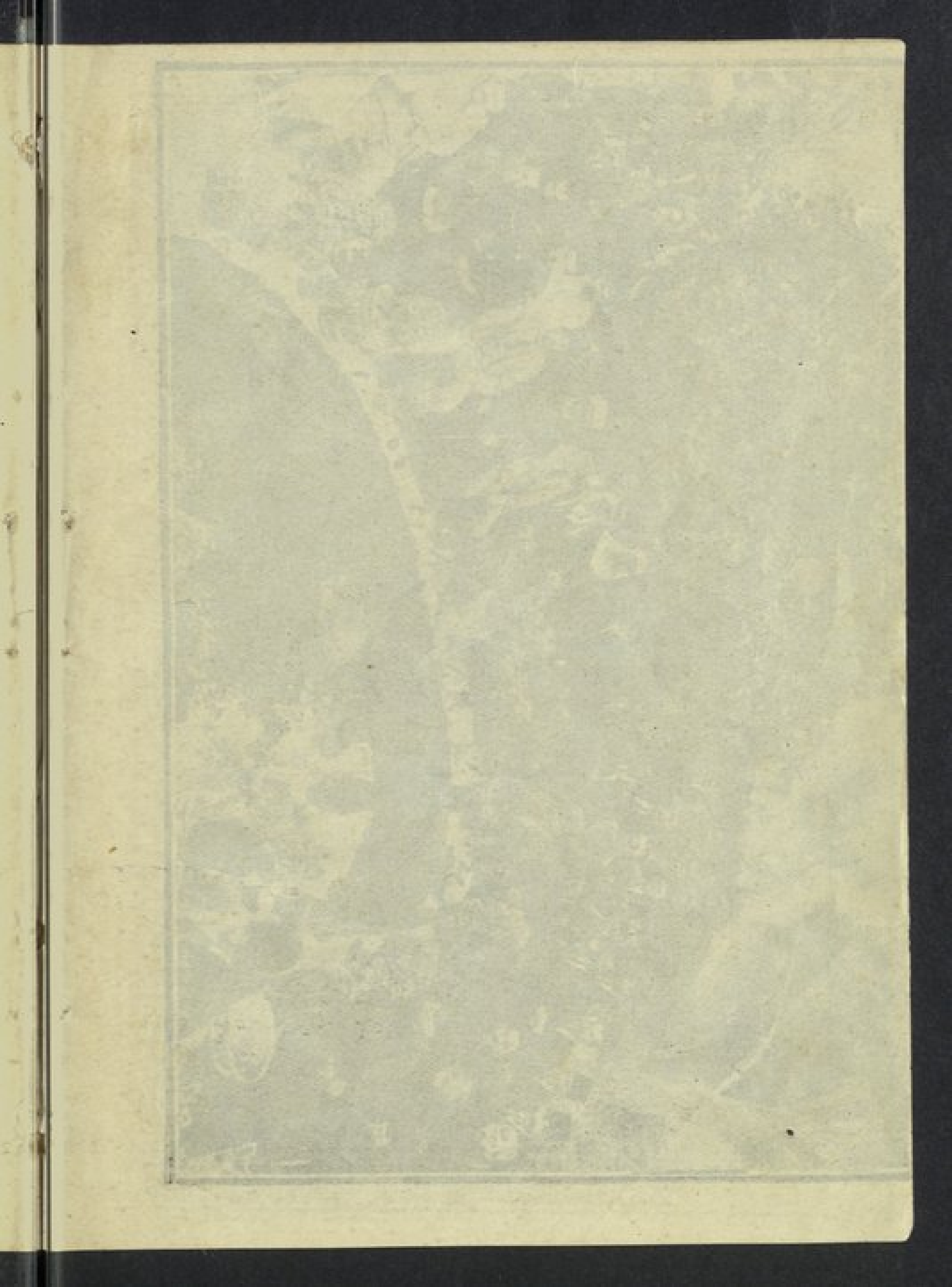


رسوم حفلة تأبين المرحوم سليم باشا الاطرش

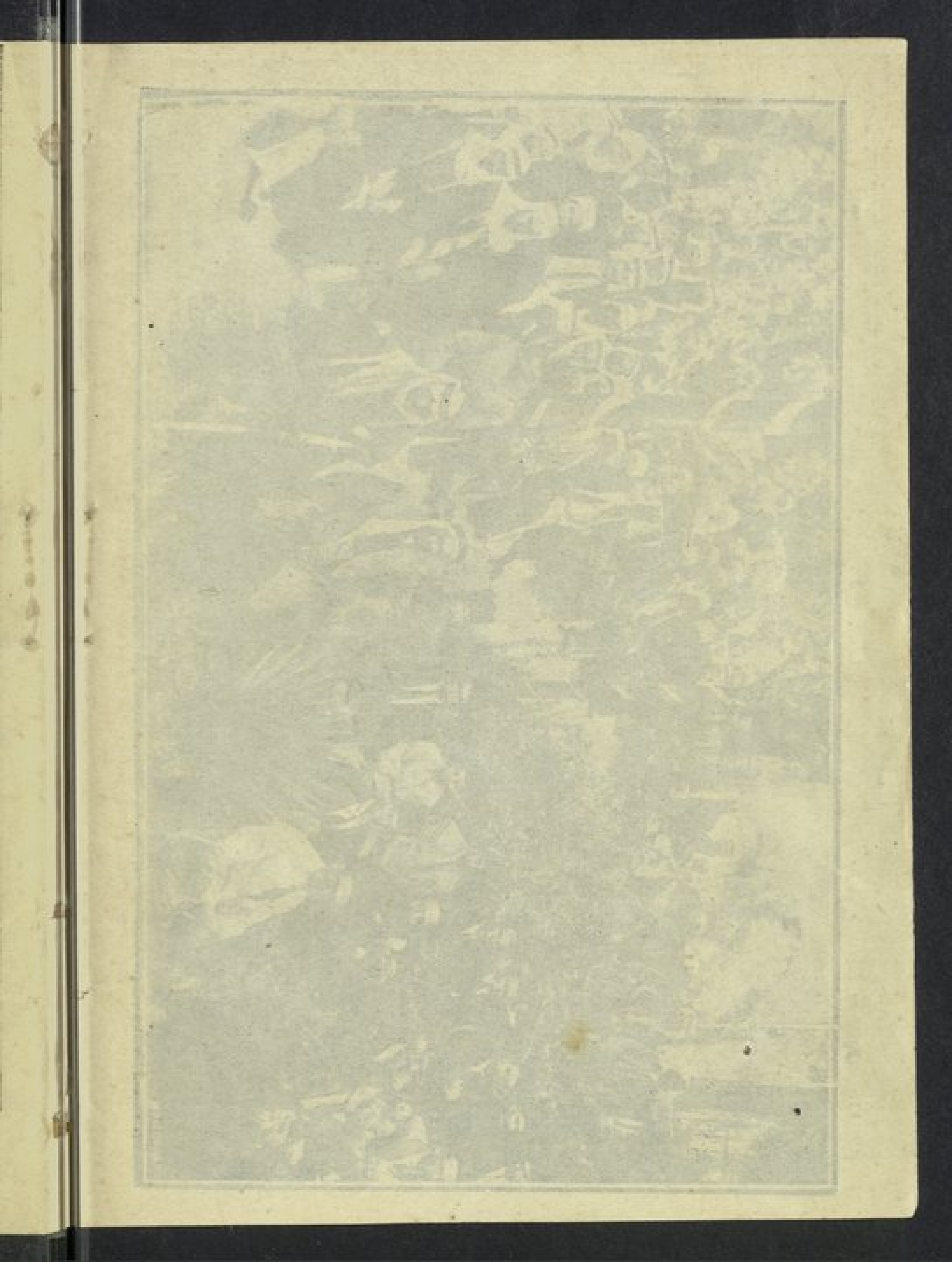
مع صور بعض الخطباء اثناء القائهم خطب الرثاء



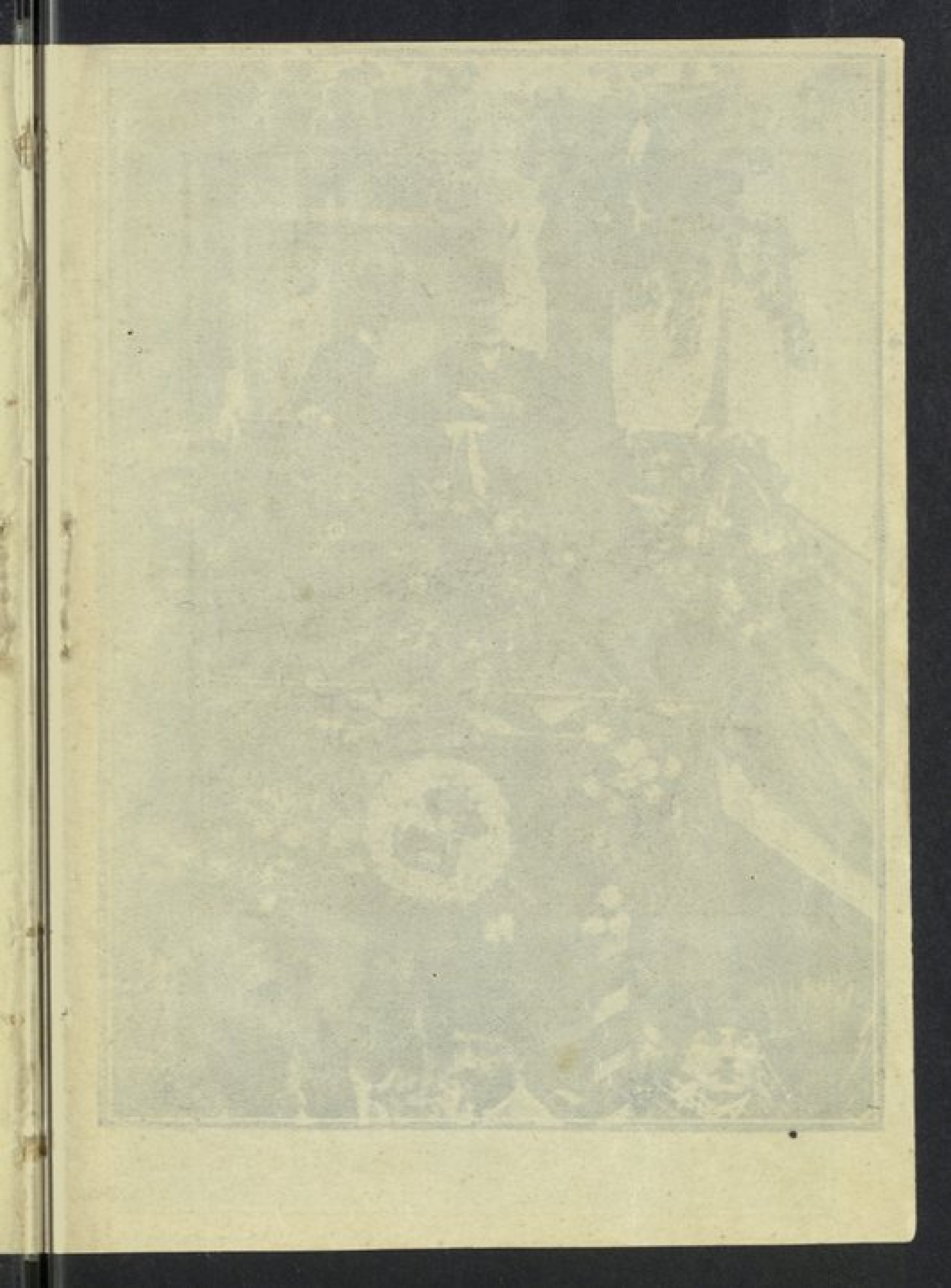




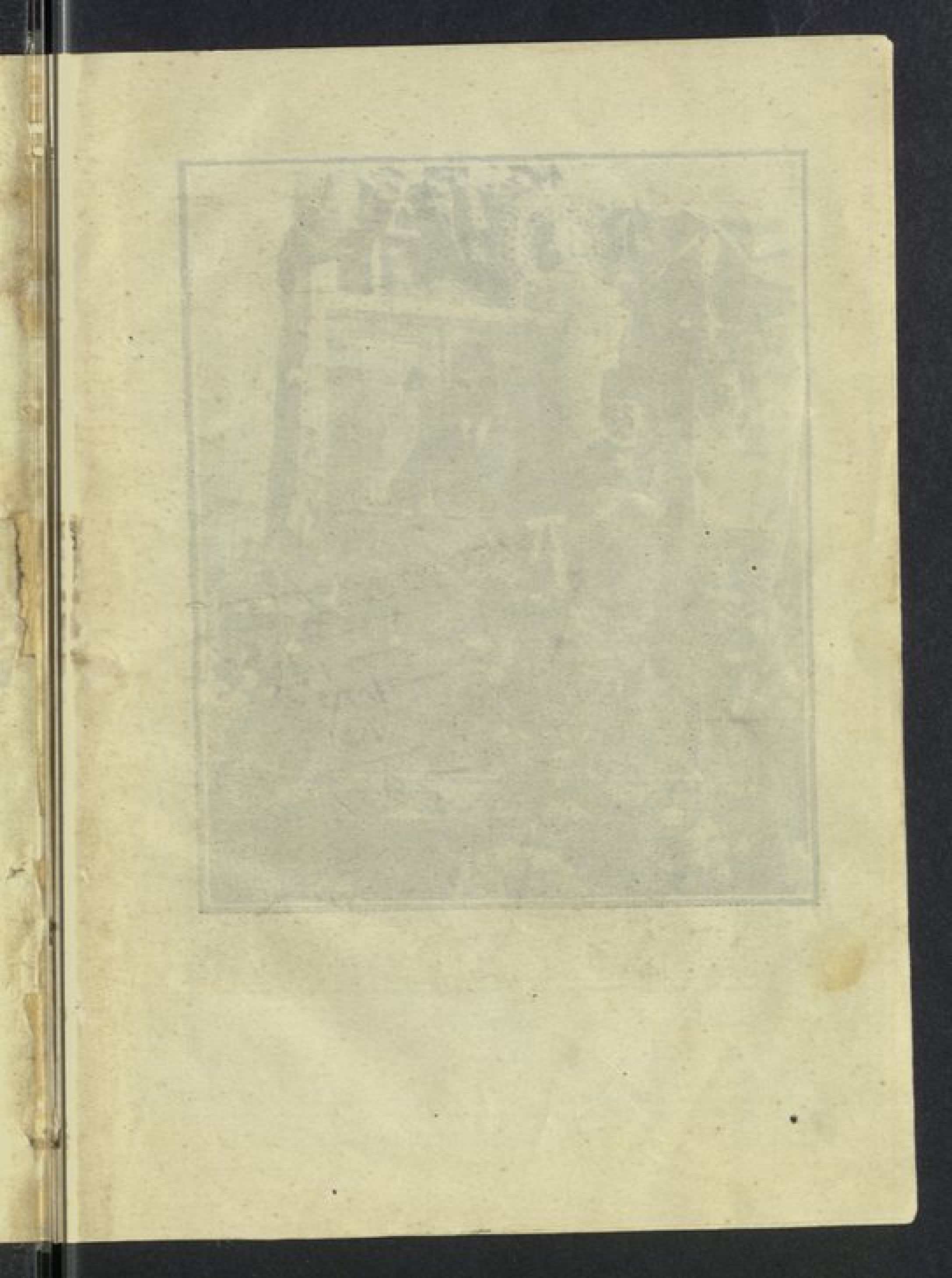




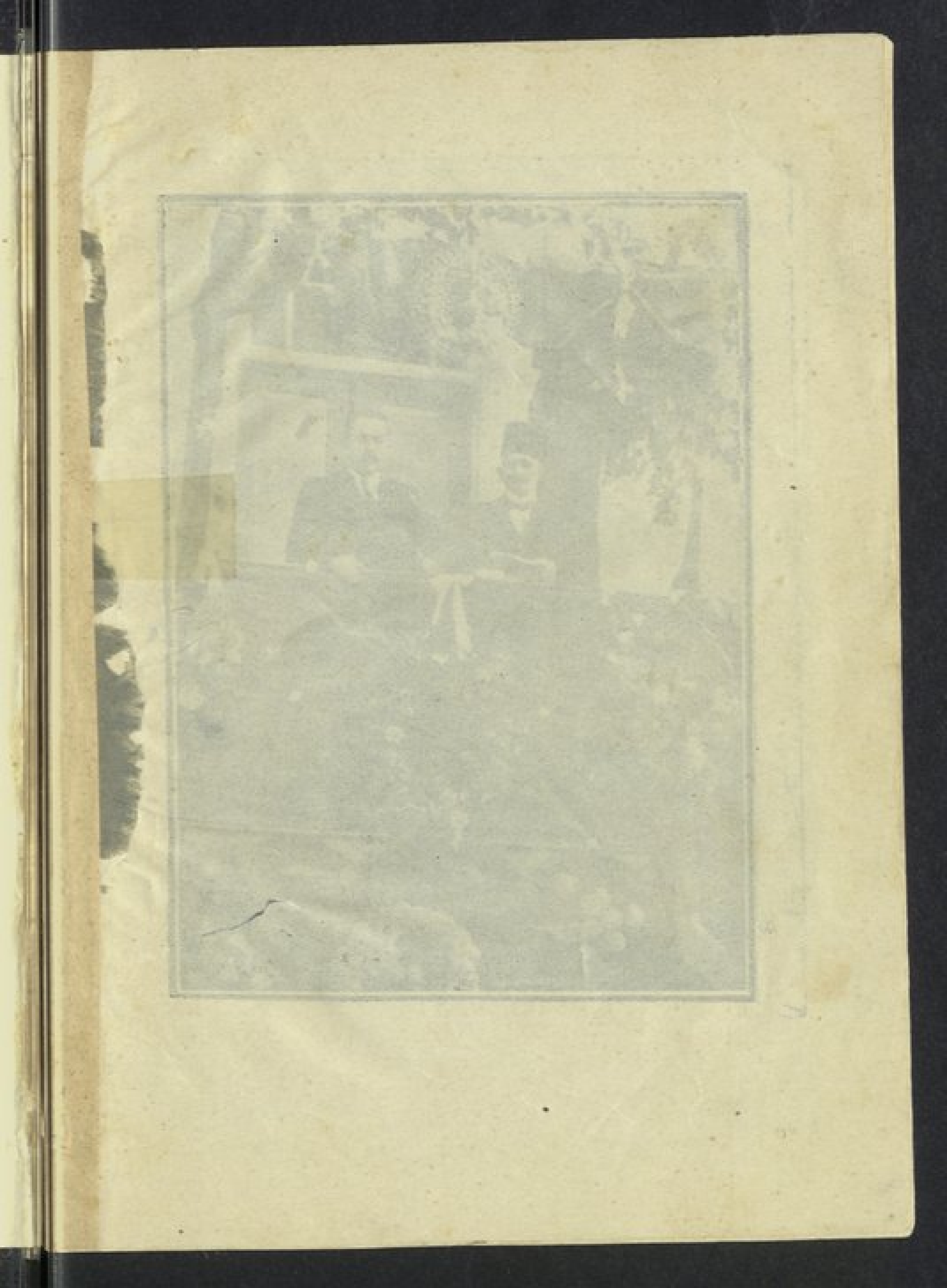


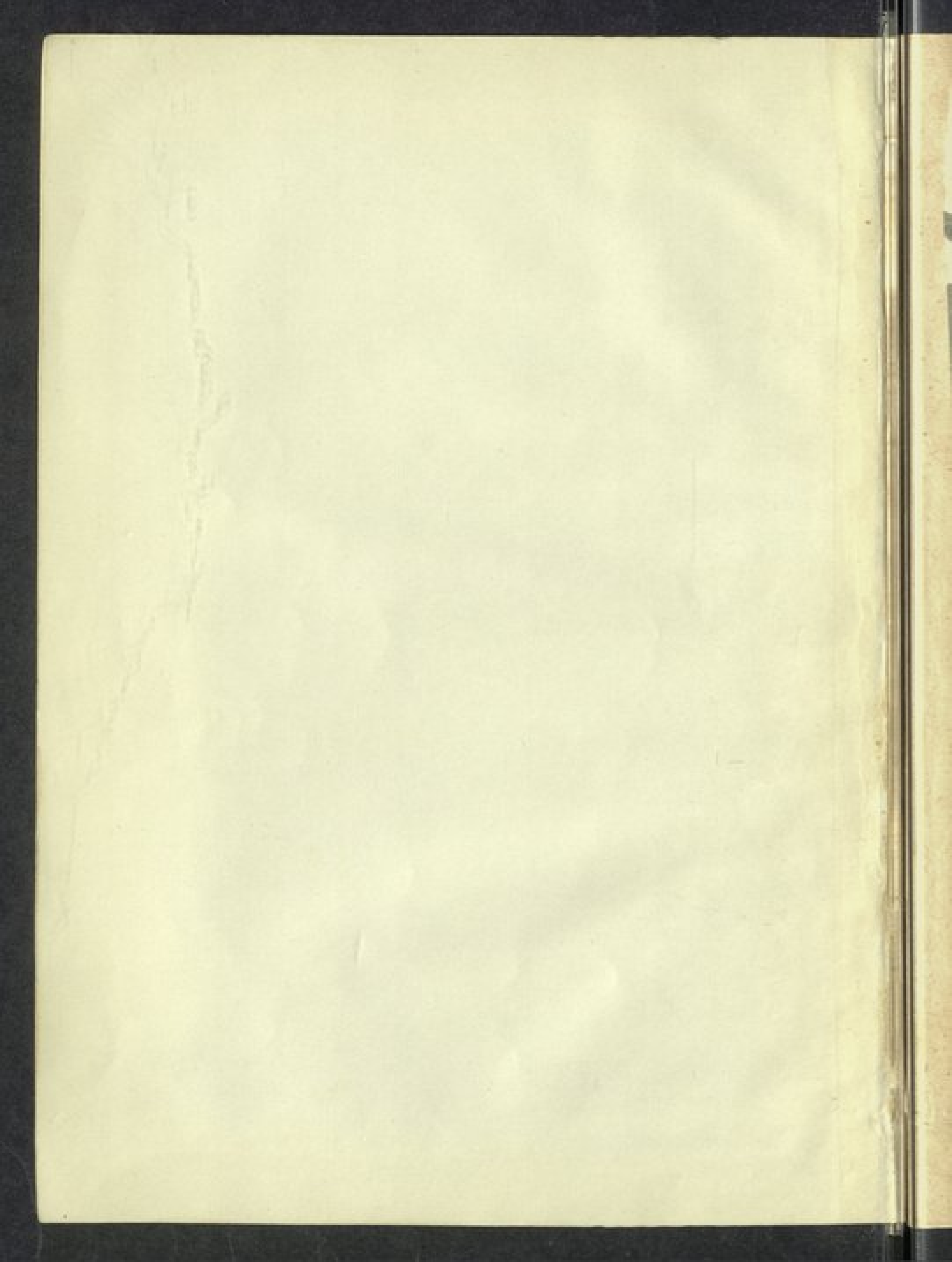


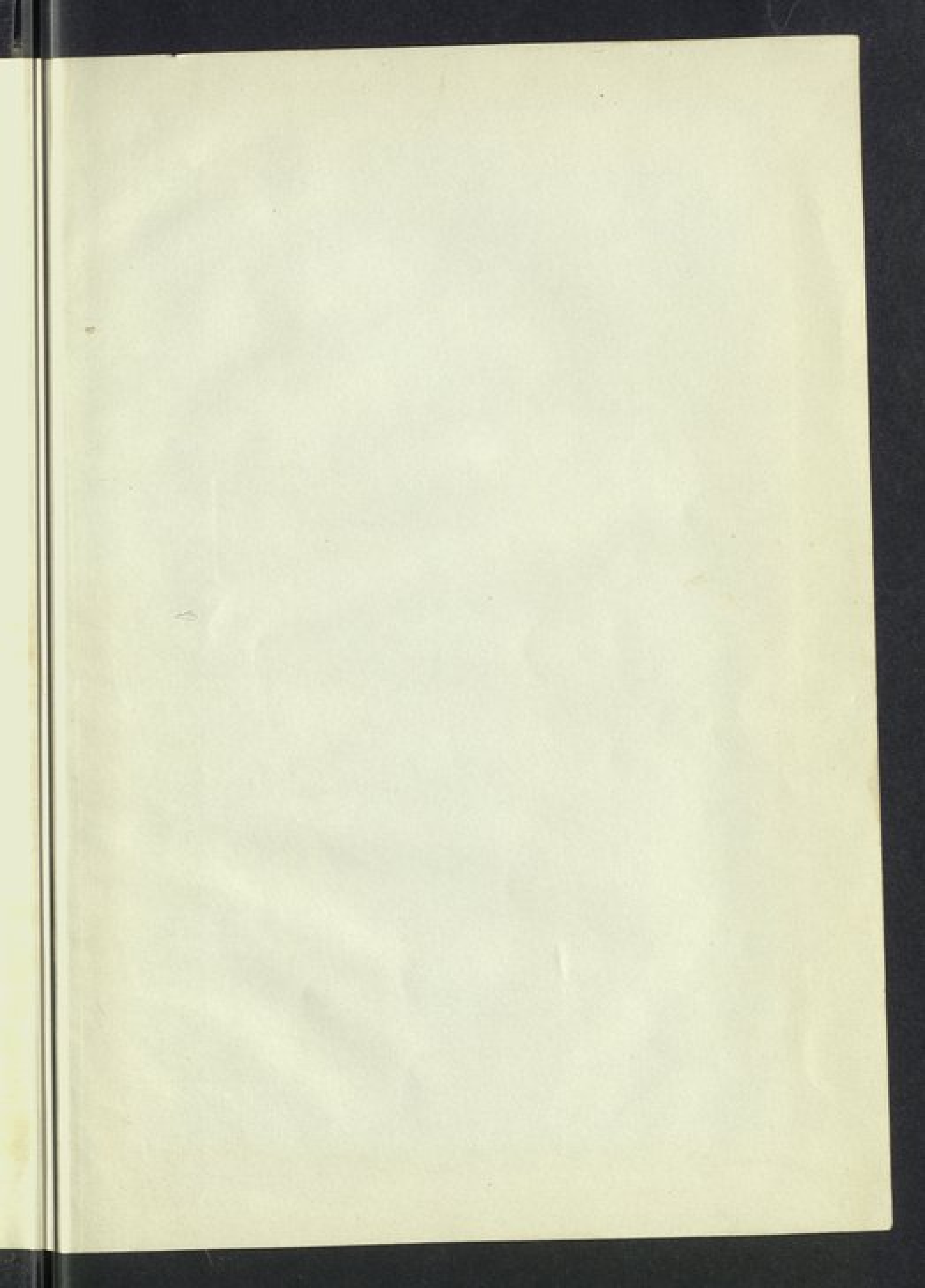


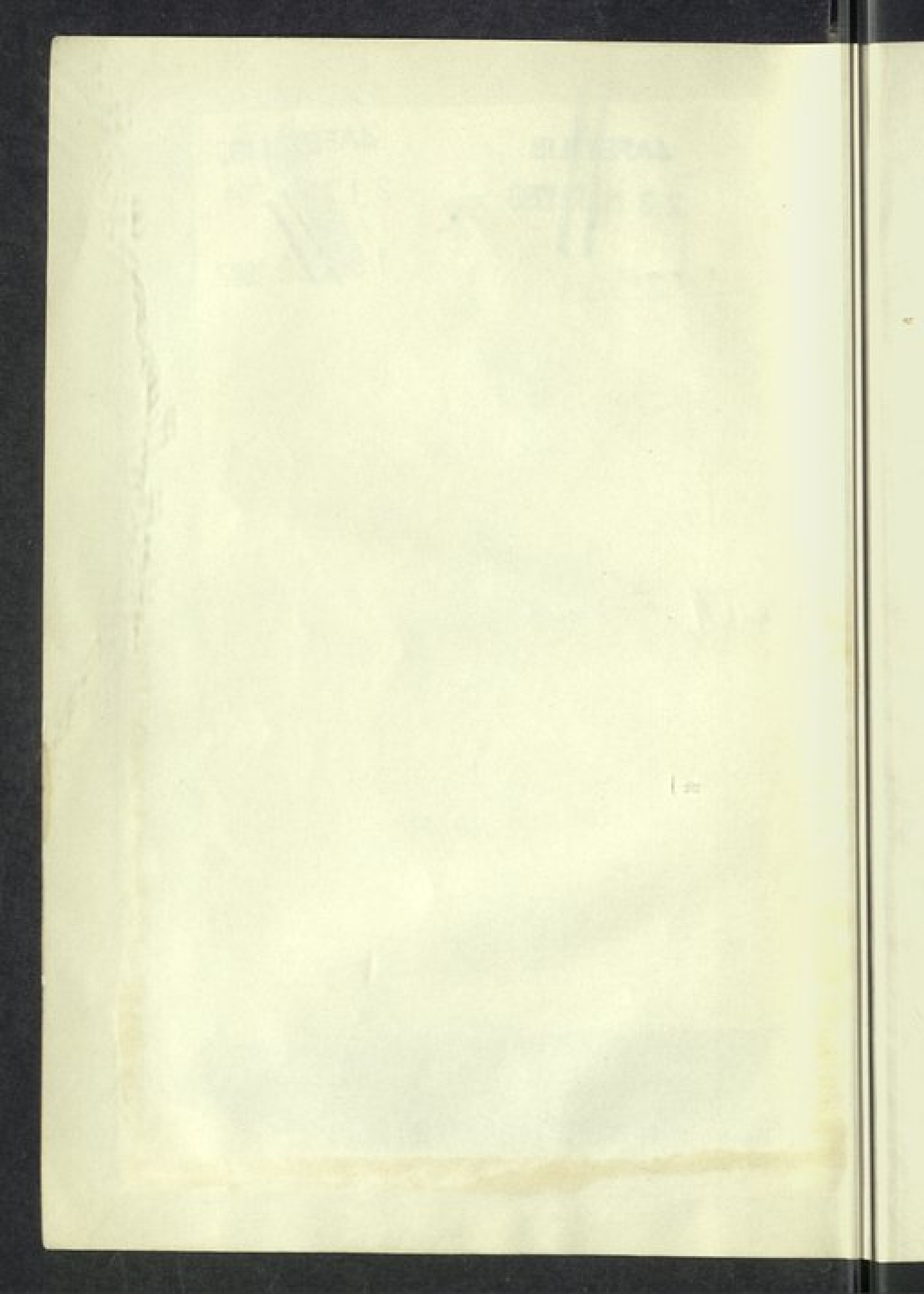













DATE DUE
JAFET LIB.
08 SEP 1998
Circulation Dept. 5
JAFET LIB.
31 AUG 1998
Circulation Dept. 5
JAFET LIB.
JUN 2002
JAFET LIB.
13 JUN 2002
Circulation Dept. 1